رؤية

هويتنا الواقية في زمن العولمة

إعداد

أ. د. محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي

المشرف علي المشروعات الثقافية
د. محيي عبد الحي

الإخراج الفني
أحمد طه محمود

تصميم الغلاف
نسرين كشك

المراجعة اللغوية
سيد عبد المنعم

المتابعة
شريف عبد العزيز

المشروعات الثقافية

رؤية

هويتنا الواقية
في زمن العولمة

إعداد
د. محمد مختار جمعة

الطبعة الأولي: للهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢٠.

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل ـ رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي : ١١٧٩٤
تليفون : ٢٥٧٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٥٩٩/ ٢٠٢٠
ISBN 978-977-91-2835-1

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة، بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول.

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب. يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة المصرية العامة للكتاب، أو بالإشارة إلى المصدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا
تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

(هود: ٨٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـة

الحمـد لله رب العالمـين، والصلاة والسـلام عـلى خاتم أنبيائـه ورسـله سـيدنا محمـد بـن عبـد الله، وعـلى آلـه وصحبـه ومـن تبـع هـداه إلى يـوم الديـن.

وبعـــد:

فـإن قضيـة تحديـد الهويـة والحفـاظ عليهـا ليسـت أمـرًا ثانويًّـا في حيـاة الأفـراد والشـعوب، بـل هـي أمـر حيـوي وديناميكـي، فالهويـة هـي حقيقـة الـشيء التـي تميـزه عـن غـيره، وهـي مجمل السـمات التـي تميز شـخصًا عن آخـر، أو شـعبًا عـن آخر، أو أمة عـن أخرى، فالهويـة الأولى هي الهوية الشـخصية، وتعنـي السـمات المميـزة لشـخص مـا، والثانيـة هـي الهويـة الوطنيـة، وتعنـي السـمات الأساسـية المشـتركة لشـعب مـا، والثالثـة هـي الهويـة القوميـة، وتعنـي السـمات الأساسـية المشـتركة الجامعـة لشـعوب أمـة مـن الأمـم.

ويكفي وصمًا لشخص ما أن يقال عنه: إنه بلا هوية، ولأمة ما أن يقال عنها: إنها أمة بلا هوية؛ لأن فقدان الهوية يكاد يكون مرادفًا لفقدان معنى الانتماء، ومعنى الإحساس بالذات، سواء على مستوى الأفراد أم على مستوى الأمم والشعوب.

وفي الحروب غير التقليدية تسعى قوى العولمة الكبرى إلى تمييع الهويات الوطنية أو تذويبها؛ ليسهل بعد ذلك السيطرة على أبنائها، فالإحساس بالكينونة والهوية يعني قوة الانتماء، وذوبان الهوية يؤدي بالضرورة إلى ضعف الانتماء، وكلما قويت روابط الهوية قويت الأمة.

ويشكل الدين، والوطن، واللغة، والثقافة، والحضارة، والجغرافيا، والتاريخ، والمصير المشترك، روافدَ قويةً لتشكيل الهوية، وبقدر قوة هذه المشتركات بين أبناء المجتمع تكون قوة تماسكه واتزانه، وأي عنصر تفلح قُوى العولمة في خلخلته يصبح أحد العوامل التي تهدد قوة الدول أو الأمم، وتنال من وحدة صفها وكلمتها، بما يشكل صدعًا كبيرًا في بنائها وتماسك لبناتها.

ومن ثمة وجب علينا أن ندرك وبعمق عوامل تشكيل هويتنا، فنحافظ عليها ونتمسك بها ولا نسمح لكائن من كان باختراقها، أو اللعب بها أو بنا، أو النيل منها، أو تقويض أركانها.

وقد بنيت هذا البحث على توطئة عن هويتنا الواقية في زمن العولمة، وستة مباحث، على النحو التالي:

المبحث الأول: الدين والهوية.

المبحث الثاني: الوطن والهوية.

المبحث الثالث: اللغة والهوية.

المبحث الرابع: الإعلام والهوية.

المبحث الخامس: الأسرة والتعليم وعوامل أخرى.

المبحث السادس: الهوية والصورة الذهنية للأفراد والمجتمعات.

المبحث السابع: من عوامل ترسيخ الهوية.

وإني لأرجو أن أكون ببحثي هذا قد لفت النظر، وشددت الانتباه إلى قضية ذات أثر كبير في قوة الدول

والأمم وصمودها، مؤكدًا أن التفريط فيها قد يكون ذا أثر بالغ في سقوط دولة ما أو انهيارها، أو تشرذمها، أو حتى ذوبانها في أمم أخرى وثقافات وهويات أخرى، وهو ما يعبر عنه بذوبان الهوية، مما يتطلب العمل الجاد على تقوية مناعتنا الحضارية ضد تيارات العولمة، ومحاولات التجريف المستمرة من أجل تغييب الوعي الوطني لشعوب أو أمم بأكملها، بغية السيطرة عليها، وإنهاء دورها الحضاري في حركة الحياة.

وإنني لعلى يقين بأن أمتنا قد تضعف لكنها لا تموت، ولن تموت بإذن الله تعالى، كما أؤمن إيمانًا لا يداخله أدنى شك بأن هذا الإيمان لا يعني الاتكالية الخاطئة، إنما يتطلب الأخذ بأقصى الأسباب في كل المجالات لنحافظ على هويتنا، ونؤدي رسالتنا في عمارة الدنيا بالدين، وليس تخريبها ولا تدميرها باسم الدين.

والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ.د. محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
عضو مجمع البحوث الإسلامية

توطئة

هويتنا الواقية في زمن العولمة

يريد أعداؤنا أن نكون مسخًا أو طمسًا، بلا هوية، بلا معالم، بلا لون أو طعم أو رائحة، هكذا يريدون لنا أن نذوب في الآخرين؛ ليذوب تميزنا، وتنطمس حضارتنا وهويتنا، مما يتطلب منا اليقظة والمقاومة لمحاولات التذويب.

ولا شك أن ثمة عناصرَ مهمةً وعلاماتٍ فارقةً هي تلك التي تشكل الهوية الواقية للأمم والشعوب، في مقدمتها: الدين بكل آفاقه الواسعة، والوطن بكل أبعاده ومقوماته: بدايةً من الجغرافيا وانتهاءً بقوة الدولة، إضافة إلى اللغة، والثقافة، والتاريخ بكل ما يحمله من إرث حضاري.

على أن هناك أممًا وشعوبًا ودولًا محدثةً تريد أن تقفز فوق التاريخ، غير أنها لا تريد أن تؤمن بالتطور الزمني ولا بالتراكم الحضاري، فلا تجد من منظورها سبيلًا للقفز فوق التاريخ إلا بالعمل على هدم حضارات الآخرين، ومحاولة

القضاء عليها أو تشويهها، فإن لم تستطع فبالعمل على إذابة هويتها في هويات محدثة تفصمها عن كل ما شكل هويتها العظيمة عبر التاريخ، وقد قالوا: من لا ماضي له فلا حاضر له ولا مستقبل.

ومع أننا لا نأخذ هذه العبارة على علاتها، فإننا نؤمن بأهمية أن نتخذ من تاريخنا العريق ما ننطلق به في حاضرنا ونسهم به في صنع مستقبلنا وهويتنا الواقية في زمن العولمة والتيارات الثقافية والفكرية والأيديولوجية الطاحنة الجارفة، وفي مواجهة موجات الشتات ومحاولات التشتيت أو التشويه الفكري.

لقد حرص نبينا ﷺ على أن يكون للمسلمين هويتهم، فنهاهم عن اللهث خلف مظاهر الآخرين الشكلية والتشبه بهم، كما نهى الرجال عن التشبه بالنساء، والنساء عن التشبه بالرجال، وحرم على رجال أمته لبس الذهب والحرير في حين أحلها لنسائها، وقال ﷺ: «لَعَنَ اللهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ»[1]، حفاظًا على هوية الرجل وهوية المرأة، مع عدم الانتقاص من هوية أي منهما.

(١) صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب: «الْمُتَشَبِّهُونَ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتُ بِالرِّجَالِ»، حديث رقم ٥٨٨٥.

وفي الجوانب الإنسانية أكد ديننا الحنيف على حفظ العهود والمواثيق الدولية، وعدم الغدر حتى بأعدى الأعداء، وعدم أخذهم غيلة أو غدرًا؛ حيث يقول الحق ﷻ: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾[1]، ويقول نبينا ﷺ: «نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم»[2]، ويقول ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّة مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّة مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَر»[3].

كما أكد ديننا الحنيف على احترام آدمية الإنسان كونه إنسانًا بغض النظر عن دينه أو لونه أو جنسه أو عرقه؛ حيث يقول الحق ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[4]، فكرّم الإنسان على إطلاق إنسانيته، ولم يقل: كرمنا المسلمين وحدهم، أو المؤمنين وحدهم، أو الموحدين وحدهم، وأمرنا أن نقول للناس كل الناس حسنًا،

(١) [سورة الأنفال، الآية ٥٨].
(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، حديث رقم ٤٧٤٠.
(٣) متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب عَلاَمَةِ الْمُنَافِقِ، حديث رقم ٣٤، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بَيَانِ خِصَالِ الْمُنَافِقِ، حديث رقم ٢١٩.
(٤) [سورة الإسراء، الآية ٧٠].

فقال ﷻ: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1]، وحرم قتل النفس كل نفس بغير حق، فقال ﷻ: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[2].

هذه الهوية هي التي عبر عنها سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عندما سألهم النجاشي ملك الحبشة عن هويتهم، فأجابه في ثبات ويقين: «أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَسْتَحِلُّ الْمَحَارِمَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى الله لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ»[3].

(١) [سورة البقرة، الآية ٨٣].
(٢) [سورة المائدة، الآية ٣٢].
(٣) مسند أحمد، ج ١ / ص ٢٠١، حديث رقم ١٢٥٣، ط: الرسالة.

ولعل من أهم سمات هويتنا الواقية في زمن العولمة الجارفة هو بناؤها الأيديولوجي على القيم والأخلاق، فقد بُني موروثنا الحضاري والثقافي على القيم والأخلاق، ولخص نبينا ﷺ الهدف الأسمى لرسالته الخاتمة بقوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»[1]، فتعلمنا أن الغايات الشريفة لا يمكن أن تتحقق إلا بالوسائل الشريفة، وأن الانتهازية ومبدأ الغاية تبرر الوسيلة يمكن نقضهما بسهولة، وعلى أقل تقدير تجاوزهما؛ لأن من نكث فإنما ينكث على نفسه، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

كما تعلمنا أن الدول التي لا تبنى على القيم والأخلاق تحمل عوامل انهيارها وسقوطها في أصل بنائها وأسس قيامها، وأن الأمم الراقية لا يمكن أن تنزلق إلى ما لا يليق بتاريخها وحضارتها وقيمها الأخلاقية والإنسانية الراسخة.

❊ ❊ ❊

(١) مسند أحمد، ج ١٩/ ص ٢١٨، حديث رقم ٩١٨٧.
(٢) [سورة الفتح، الآية ١٠].

المبحث الأول

الديـن والهويـة

الديـن والهويـة

التدين الصحيح صمام أمان لكل شيء، ونراه من أهم الضوابط إن لم يكن أهمها على الإطلاق في توجيه سلوك البشر وتصرفاتهم، ولا ينكر عاقل أو منصف أن الدين بصفة عامة أحد أهم عوامل بناء الشخصية وتشكيل الهوية، وأن الفهم الصحيح للدين يسهم بقوة في بناء شخصية إيجابية بنَّاءة، وأن الفهم الخاطئ للدين، أو الانحراف عن الأديان كلية يؤدي إلى خلل في تكوين الشخصية بقدر الانحراف عن صحيح الدين، أو قدر الفهم الخاطئ له، بما قد يصل إلى درجات بعيدة من السلبية أو الهدم، أو العقد النفسية المدمرة لصاحبها أو للمجتمع أو لهما معًا.

فالديـن فطـرة الله التي فطـر الناس عليهـا؛ حيث يقول الحق ﷻ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1] ويقول ﷻ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[3]، ويقول ﷻ في الحديث القدسي: «إِنِّي خَلَقتُ عِبَادِيَ حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُ أَتتهُمُ الشَّيَاطِينُ

(١) [سورة الروم، الآية ٣٠].

(٢) [سورة البقرة، الآية ٢١٣].

(٣) [سورة النساء، الآيات ١٦٣- ١٦٥].

فَاجْتَالَتهُـمْ عَـنْ دِينِهِـمْ، فَحَرَّمَـت عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْـتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتهُـمْ أَنْ يُشْرِكُـوا بِي مَـا لَمْ أُنَـزِّلْ عَلَيْهِمْ بِهِ سُـلْطَانًا»[1].

فلـم يخلـق الله ﷻ النـاس ولا الكـون عبثًـا ولا همـلًا، حيـث يقـول ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2]، إنـما خلقهـم لغايـة حددهـا ﷻ، حيـث يقـول في كتابـه العزيـز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[3]، عـلى أننـا نفهم العبادة بمفهومهـا الواسـع الذي يشـمل - إلى جانـب أداء العبادات والشـعائر الدينيـة - إتقـان العمـل وعـمارة الكـون، وبنـاء الحضـارات.

---

(١) صحيح مسـلم، كتاب الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، بَابُ الصِّفَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ، حديث رقم ٢٨٦٥.

(٢) [سورة المؤمنون، الآيات ١١٥- ١١٧].

(٣) [سورة الذاريات، الآيات ٥٦- ٥٨].

فالأديان السماوية كلها جاءت لسعادة البشرية وصلاحها واستقامتها، يقول الحق ﷻ مخاطبًا نبينا محمدًا ﷺ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾[1]، فالأديان قائمة على جلب المصالح للعباد والبلاد ودرء المفاسد عنها، ومن القواعد المقررة أنه حيث تكون المصلحة فثمة شرع الله ﷻ، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: المعلوم من الشريعة أنها شرعت لمصالح العباد؛ فالتكليف كله إما لدرء مفسدة، وإما لجلب مصلحة، أو لهما معًا[2].

ويقول رحمه الله: إن الشرائع إنما جيء بها لمصالح العباد؛ فالأمر والنهي والتخيير جميعًا راجعة إلى حظِّ المكلف ومصالحه؛ لأن الله ﷻ غني عن الحظوظ، منزه عن الأغراض[3].

ويقول العز بن عبد السلام رحمه الله: لا يخفى على عاقل أن تحصيل المصالح المحضة ودرء المفاسد المحضة عن نفس الإنسان وعن غيره محمود حسن، وأن تقديم أرجح المصالح فأرجحها محمود حسن، وأن درء أفسد المفاسد فأفسدها محمود حسن، وأن تقديم المصالح الراجحة على

(١) [سورة طه، الآيتان ١، ٢].
(٢) الموافقات للإمام الشاطبي، ج ١ / ص ٣١٨، ط : دار المعرفة، بيروت.
(٣) المصدر السابق، ج ١ / ص ٢٣٤.

المرجوحة محمود حسن، وأن درء المفاسد الراجحة على المصالح المرجوحة محمود حسن، واتفق الحكماء أيضًا، وكذلك الشرائع على تحريم الدماء، والأعراض، والأموال، وعلى تحصيل الأفضل فالأفضل من الأقوال والأعمال[1].

فرسالة الأديان والرسل هي هداية الخلق، وإقامة الحق والعدل، ونشر الهدى والنور ومكارم الأخلاق، وتحقيق الرحمة للعالمين في الدنيا والآخرة، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[3]، ويقول ﷻ مخاطبًا نبينا ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[4].

وها هو خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام يدعو قومه إلى عدم التطفيف في الكيل والميزان، فيقول كما حكى القرآن الكريم على لسانه: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام، ج ١ / ص ٤، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
(٢) [سورة الحديد، الآية ٢٥].
(٣) [سورة ص، الآية ٢٦].
(٤) [سورة الأنبياء، الآية ١٠٧].

بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[١].

وهذا نبي الله صالح عليه السلام يقول لقومه: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[٢].

وعندما نبحث عن الهدف الأسمى لرسالة خاتم الأنبياء والمرسلين نجد أنه يقوم على ركيزتين أساسيتين: الأولى هي الرحمة، حيث يقول نبينا ﷺ: (إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ)[٣]، وهي أخص خصوصيات رسالة نبينا ﷺ، أما الركيزة الثانية فهي الأعم، وتتضمن الأولى وتدعمها وتؤكدها؛ حيث يقول نبينا ﷺ: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ)[٤].

فقد أجمعت الشرائع السماوية على ما فيه خير البشرية، وما يؤدي إلى سلامة النفس والمال والعقل والعرض، وقيم: العدل، والمساواة، والصدق، والأمانة، والحلم، والصفح، وحفظ العهود، وأداء الأمانات، وصلة الأرحام، وحسن

(١) [سورة الشعراء، الآيات ١٨١ - ١٨٣].
(٢) [سورة الشعراء، الآيات ١٥٠ - ١٥٢].
(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب الإيمان، ج ١/ ص ١٠٣، حديث رقم ١٠٠.
(٤) مسند أحمد، ج ١٤ / ص ٨٩٥٢، حديث رقم ٨٩٥٢.

الجوار، وبر الوالدين، وحرمة مال اليتيم، وهي مبادئ إنسانية عامة لم تختلف عليها الشرائع السماوية، ولم تنسخ في أي شريعة منها؛ حيث يقول الحق ﷻ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، فقد ذكر سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآيات آيات محكمات لم تنسخ في أي ملة من الملل أو شريعة من الشرائع[2].

(١) [سورة الأنعام، الآيات ١٥١-١٥٣].
(٢) انظر: تفسير الطبري، ج ١٢/ ص ٢٢٦، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط: مؤسسة الرسالة، وتفسير ابن كثير، ج ٣ / ص ٣٥٩، ط : دار طيبة للنشر والتوزيع.

فأروني أي شريعة من الشرائع أباحت قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، أو أباحت عقوق الوالدين، أو أكل السحت، أو أكل مال اليتيم، أو أكل حق العامل أو الأجير.

وأروني أي شريعة أباحت الكذب، أو الغدر، أو الخيانة، أو خُلف العهد، أو مقابلة الحسنة بالسيئة.

بل على العكس فإن جميع الشرائع السماوية قد اتفقت، وأجمعت على هذه القيم الإنسانية السامية، من خرج عليها فإنه لم يخرج على مقتضى الأديان فحسب، وإنما يخرج على مقتضى الإنسانية، وينسلخ من آدميته، ومن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

ولا يمكن للعقوبات الدنيوية والأعراف والتقاليد وحدها مهما كانت دقتها أن تضبط حركة الإنسان في الكون، ما لم يكن لهذا الإنسان ارتباط وثيق بخالقه، وقد قال أحد الحكماء: من الصعب بل ربما كان من المستبعد أو المستحيل أن نخصص لكل إنسان حارسًا يحرسه أو مراقبًا يراقبه، وحتى لو خصصنا لكل إنسان حارسًا يحرسه، أو مراقبًا يراقبه، فالحارس قد يحتاج إلى من يحرسه، والمراقب قد يحتاج إلى من يراقبه، ولكن من السهل أن نربي في كل إنسان ضميرًا

حيًّا ينبض بالحق، ويدفع إليه، راقبناه أو لم نراقبه، لأنه يراقب من لا تأخذه سِنة ولا نوم، فالتدين الحقيقي يعصم صاحبه من الزلل؛ لأنه يدرك أن أعماله تحصى عليه، وأنه سيقف بين يدي الله ﷻ الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، حيث يقول ﷻ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[1]، ويقول ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[3]، ويقول ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[4]، ويقول ﷻ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[5]، ويقول ﷻ على لسان لقمان عليه السلام في وصيته

(١) [سورة الصافات، الآية ٢٤].
(٢) [سورة المجادلة، الآية ٧].
(٣) [سورة الأنعام، الآية ٥٩].
(٤) [سورة ق، الآية ١٨].
(٥) [سورة يونس، الآية ٦١].

لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾[1].

على أن التدين الذي نبحث عنه ونسعى إليه إنما هو التدين الحقيقي الخالص لوجه الله ﷻ وليس التدين الشكلي أو النفعي.

ولا شك أن ظاهرة التدين الشكلي وظاهرة التدين السياسي تعدان من أخطر التحديات التي تواجه المجتمعات العربية والإسلامية، فهناك من يركزون على الشكل والمظهر ولو كان على حساب اللباب والجوهر، وإعطاء المظهر الشكلي الأولوية المطلقة، حتى لو لم يكن صاحب هذا المظهر على المستوى الإنساني والأخلاقي الذي يجعل منه القدوة والمثل، ذلك أن صاحب المظهر الشكلي الذي لا يكون سلوكه متسقًا مع تعاليم الإسلام يُعدُّ أحد أهم معالم الهدم والتنفير من الدين، فإذا كان المظهر مظهر المتدينين مع ما يصاحبه من سوء المعاملات، أو الكذب، أو الغدر، أو الخيانة، أو خلف الوعد، أو أكل أموال الناس بالباطل، فإن

(١) [سورة لقمان، الآية ١٦].

الأمر هنا جد خطير في الصد عن دين الله والتنفير منه، بل إن صاحبه يسلك في عداد المنافقين، حيث يقول نبينا ﷺ: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) [1].

وكذلك من يحصرون التدين في باب العبادات والاجتهاد فيها مع سوء الفهم للدين، والإسراف في التكفير، وحمل السلاح والخروج على الناس به، كما حدث من الخوارج الذين كانوا من أكثر الناس صلاة وصيامًا وقيامًا غير أنهم لم يأخذوا أنفسهم بالعلم الشرعي الكافي الذي يحجزهم عن الولوغ في الدماء، فخرجوا على الناس بسيوفهم، ولو طلبوا العلم أولاً كما قال الإمام الشافعي رحمه الله لحجزهم عن ذلك[2].

فالإسلام دين رحمة قبل كل شيء، وكل ما يبعدك عن الرحمة يبعدك عن الإسلام، والعبرة بالسلوك السوي لا بمجرد القول، وقد قالوا: حال رجل في ألف خير من كلام ألف لرجل.

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب عَلَامَةِ الْمُنَافِقِ، حديث رقم ٣٣. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بَيَانِ خِصَالِ الْمُنَافِقِ، حديث رقم ٢٢٠.

(٢) جامع بيان العلم لأبي يوسف عمر بن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣هـ، ج ١/ ص ١٣٦، ط دار الكتب العلمية. بيروت.

على أن العبادات كلها لا تؤتي ثمرتها إلا إذا هذَّبت سلوك وأخلاق صاحبها، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له، ومن لم ينهه صيامه عن قول الزور فلا صيام له، يقول نبينا ﷺ: (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ)[1]، ولا يقبل الله ﷻ في الزكاة والصدقات إلا المال الطيب الطاهر، يقول نبينا ﷺ: (إِنَّ الله طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا)[2]، ويقول ﷺ: (لا يَقْبَلُ الله صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُــورٍ، وَلَا صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ)[3].

وأخطر من هذا التدين الشكلي التدين السياسي، ونعني به هذا الصنف الذي يتخذ الدين مجرد وسيلة ومطية للوصول إلى السلطة من خلال استغلال العواطف الدينية وحب الناس - وبخاصة العامة - لدينهم، وإيهامهم بأن هدفه من الوصول إلى السلطة إنما هو فقط خدمة دين الله ﷻ والعمل على نصرته والتمكين له، ومع أننا لا نحكم على النوايا ولا نتدخل في أمر النيات فهي ما بين العبد وخالقه، وكل ونيته، فإن الواقع يشهد بأمرين:

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، حديث رقم ١٩٠٣.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب قَبُولِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ، حديث رقم ٢٣٩٣.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة، حديث رقم ٥٥٧.

الأول: أن القضية عند هذه الجماعات ليست قضية دين على الإطلاق، إنما قضية صراع على السلطة بشَرَهٍ ونَهَم لم نعرف لهما مثيلًا، مع إقصاء للآخرين في عنجهية، وصلفٍ، وغرور، وتكبر، واستعلاء ربما لم يشهد تاريخنا مثله، بما نفر الناس منهم ومن سلوكهم الذي صار عبئًا كبيرًا على الدين، وأصبحنا في حاجة إلى جهود كبيرة لمحو هذه الصورة السلبية التي ارتسمت في أذهان كثير من الناس؛ لربطهم بين سلوك هؤلاء الأدعياء وبين الدين.

الأمر الآخر: أنهم أساءوا لدينهم، وشوهوا الوجه النقي لحضارته الراقية السمحة، وأثبتوا أنهم لا أهل دين ولا أهل كفاءة، وإلا فهل من الدين استباحة الدماء والأعراض، والتحريض على العنف والقتل والفساد والإفساد؟

وقد أكَّدتُ وما زلت أؤكد أن هذه الجماعات الإرهابية التي توظف الدين لخداع الناس، وتحقيق مآربها السلطوية هي على استعداد للتحالف حتى مع الشيطان لتحقيق أهدافها ومطامعها ولو على حساب دينها، أو حساب وطنها، أو حساب أمتها، أو حساب ذلك كله.

أضف إلى ذلك ما درجت عليه هذه الجماعات وعناصرها وقادتها من الغش والكذب، والمخادعة، والمخاتلة.

والأكثر سوءًا أنهم يعدُّون كل هذه الرذائل التي لا تمت للأديان أو الأخلاق بأية صلة وسائل مشروعة، طالما أنها تحقق لهم الغاية التي يسعون إليها في سبيل التمكين السلطوي الذي يسعون إليه، وكلما علت درجة العضو في الجماعة كلما اتسع نطاق الاستحلال والكذب والخداع والمراوغة لديه، فكبيرهم في التنظيم لا بد أن يكون كبيرهم في العمل على تحقيق مصلحة الجماعة بأي وسيلة وكل وسيلة، بل إنه لا يكاد يصل إلى هذه المكانة إلا بأحد أمرين: الوراثة، أو الوصولية والمزايدة في تنفيذ ما تطلبه منه الجماعة وإن خالف الشرع، أو تطلّب سفك الدماء أو الإفساد والتخريب.

ولا شك أن ما قامت به الجماعات الإرهابية المحسوبة ظلمًا على الإسلام من أعمال إجرامية قد أسهم في تصاعد ما يعرف بظاهرة «الإسلاموفوبيا»، وأصبحنا في حاجة إلى بذل جهود جبَّارة لبيان أن ديننا الحنيف السمح لا علاقة له بهذا الإرهاب والإجرام، وأنه منها جميعًا براء، حتى نصحح

الصورة الذهنية لديننا السمح، والتي شوهت الجماعات الإرهابية جانبًا من صفحتها السمحة النقية.

كما أننا بحاجة أكثر إلى إبراز أثر الدين في نشر القيم الأخلاقية والإنسانية، وإبراز أن دور الأديان هو عمارة الدنيا بالدين، وليس تخريبها باسم الدين، فالدين فن صناعة الحياة لا صناعة الموت.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني

الـوطن والهويـة

الـوطن والهويـة

قضية الهوية والانتماء من أهم القضايا التي إما أن تؤدي إلى الأمن والاستقرار، والازدهار والنماء حال الالتفاف حول قضايا الوطن والإيمان به، وإما أن تؤدي إلى التشرذم والتـفكك، وإثارة الاضطرابات والقلاقل والفتن، وربما العمالة أو الخيانة حال التنكر له ولحقه على أبنائه، وإيثار المصالح النفعية الضيقة المقيتة على المصالح العليا للأوطان.

وللهوية أركانها ومعالمها التي يقاس من خلالها مدى انتماء المرء إلى وطنه، على أن جميع الدول والقوميات والأعراق والمذهبيات، سواء تلاقت أم تداخلت أم توازت أم تناقضت، فإن كلًّا منها يسعى ويعمل على تعميق الولاء والانتماء إليه لدى منتسبيه أو مستهدفيه، كما أن هناك صراعًا تاريخيًّا أو شبه تاريخي يقوى ويطفو على السطح حينًـا، ويخفت ويستتر حينًا آخر، لكنه موجود بصورة أو بأخرى على أية حال، وهو ذلك الصراع بين الحريصين على

هوية الدولة الوطنية وتعميق وترسيخ وتجذير الانتماء إليها، ومن يعملون أو يدينون بولاءات أخرى.

والفهم الخاطئ الذي أصَّلته ورسَّخته كثير من الجماعات المتطرفة لدى عناصرها هو أن الولاء للجماعة والتنظيم فوق الولاء للوطن، وهذا الفهم تتبناه جميع الجماعات الإرهابية والمتطرفة التي ترى أن الدولة الوطنية بحدودها الراسخة المستقرة تقف صخرة وعقبة كئود في وجه مشروعاتهم السلطوية للقفز على الدولة الوطنية.

ونؤكد على الآتي:

١- أن حب الوطن والحفاظ عليه فطرة إنسانية أكدها الشرع الحنيف، فهذا نبينا ﷺ يقول مخاطبًا مكة المكرمة: (والله إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ الله، وَأَحَبُّ أَرْضِ الله إلى الله، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ ؛ ما خَرَجْتُ)[1]، ولما هاجر ﷺ إلى المدينة واتخذها وطنًا له ولأصحابه الكرام لم ينس ﷺ وطنه الذي نشأ فيه، ولا وطنه الذي استقر فيه، وقد قال: (اللهمَّ حَبِّبْ

(١) سُنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في فَضْلِ مَكَّةَ، حديث رقم ٤٣٠٤.

إِلَيْنَا المَدِينَة كَحُبِّنَا مَكَّة أَوْ أَشَدَّ، اللهمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا، وَصَحِّحْهَا لَنَا، وَانقلْ حُمَّاهَا إِلَى الجُحْفَةِ)[1]، وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَنَظَرَ إِلَى جُدُرَاتِ المَدِينَةِ[2]، أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَّكَهَا مِنْ حُبِّهَا»[3].

وقد قال الحافظ الذهبي رحمه الله مُعَدِّدًا طائفةً من محبوبات رسول الله ﷺ: «وكان يحبُّ عائشةَ، ويحبُّ أَبَاهَا، ويحبُّ أسامةَ، ويحب سبطَيْه، ويحب الحلواء والعسل، ويحب جبل أُحُدٍ، ويحب وطنه»[4].

وقال عبد الملك بن قَرَيْبٍ الأصمعي: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ووفاء عهده، فانظر إلى حنينه

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب كَرَاهِيَةِ النَّبِيِّ أَنْ تُعْرَى المَدِينَةُ (أي: يخلو ما حولها فتترك عراءً)، حديث رقم ١٨٨٩، وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب التَّرْغِيبِ فِي سُكْنَى المَدِينَةِ وَالصَّبْرِ عَلَى لأْوَائِهَا، حديث رقم ٣٤٠٨.

(٢) الجدرات، بِضَم الجِيم وَالدَّال: جمع جدر، بِضَمَّتَيْنِ جمع: جِدَار. عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥ هـ)، ج ١٠/ ص ١٣٥، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب المَدِينَةُ تَنْفِي الخَبَثَ، حديث رقم ١٨٨٦.

(٤) سير أعلام النبلاء، لشمس الدين الذهبي، ج ١٥/ ص ٣٩٤، ترجمة رقم ٢١٦، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت.

إلى أوطانـه، وتشـوُّقه إلى أهلـه، وبكائـه عـلى مـا مـضى مـن زمانـه[1]، ونقـل مثـل ذلـك عـن أحـد الأعـراب[2].

وفي السياق والمناخ الفكري الصحي لا يحتاج الثابت الراسخ إلى دليل، لكن اختطاف الجماعات المتطـرفـة للخطاب الديني واحتكارها له ولتفسيراته جعل ما هو في حكم المسلمات محتاجًا إلى التدليل والتأصيل، وكأنه لم يكن أصلًا ثابتًا، فمشروعية الدولة الوطنية أمر غير قابل للجدل أو التشكيك، بل هو أصل راسخ لا غنى عنه في واقعنا المعاصر.

وقد قرر الفقهاء أن العدو إذا دخل بلدًا من بلاد المسلمين صار الجهاد ودفع العدو فرض عين على أهل هـذا البلد رجالهم ونسائهم، كبيرهم وصغيرهم، قويهم وضعيفهم، مسلحهم وأعزلهم، كل وفـق استطاعته ومكنته، حتى لو فنوا جميعًا، ولو لم يكن الدفاع عن الديار مقصدًا من أهم

(١) كشـف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني، ط: دار إحياء التراث العربي، ج ١/ ص ٣٤٧، والآداب الشرعيـة لعبـد الله محمد بن مفلح المقدسي، ج ١ / ص ٢٩٢، تحقيق: شـعيب الأرناؤوط – عمر القيَّام. ط : مؤسسة الرسالة.

(٢) العقد الفريـد لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلـسي، ج ٤/ ص ٣١، تحقيق : مفيد محمد قميحة، ط : دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

مقاصد الشرع لكان لهم أن يتركوا الأوطان وأن ينجوا بأنفسهم وبدينهم.

٢- أهمية تعميق وترسيخ الولاء والانتماء الوطني، والاعتزاز بالوطن، والاستعداد لفدائه بالنفس والنفيس، مع الشعور بفضله، والحفاظ على ترابه وثراه، والتأكيد على أن الوطنية ليست نقيضًا للدين أو مقابلًا له، بل هي من صلب الدين، فمصالح الأوطان من صميم مقاصد الأديان، كما أنه لا بد للدين من وطن آمن مستقر يحمله ويحميه.

٣- أن ترسيخ الهوية الوطنية له معالمه الظاهرة من احترام علم الدولة والعمل على رفعه عاليًا، وترسيخ نشيدها الوطني وكل ما يحفر اسمها في النفوس والقلوب، مع ما يدعمه مضمونًا وجوهرًا من العمل والإنتاج، وإيثار المصلحة العامة للوطن على أي مصالح أخرى، وإدراك أن مصلحة الوطن هي مصلحة لجميع أفراده وأبنائه، وأن رجلًا فقيرًا في دولة غنية قوية خير مائة مرة ومرة من رجل غني قوي في دولة فقيرة ضعيفة مهددة في كيانها وأصل وجودها؛ لأن الأول له دولة تحمله وتحميه، والآخر لا ظهر له.

٤- أن الهوية الوطنية قد تتلاقى مع هويات أخرى عربية، أو إسلامية، أو أفريقية، أو آسيوية، حسب ظروف وموقع كل دولة، على ألا يكون ذلك توجه أفراد أو جماعات أو أحزاب أو قبائل بمعزل عن التوجه الوطني، فيذهب هذا إلى الشرق وذاك إلى الغرب وثالث إلى الشمال ورابع إلى الجنوب، مما يؤدي إلى تمزق الدول وتفككها وتشتيت كيانها بل ربما تشرذمها، بل أن تكون الدولة الوطنية على قلب رجل واحد فى توجهاتها، بما يعطيها القوة في محيطها الإقليمي وفي علاقاتها الدولية.

٥- أننا مع اعتزازنا بهويتنا وحضارتنا وثقافتنا الإسلامية واعتزازنا بها، وإدراكنا لأهمية العمق الإستراتيجي الأفريقي واعتزازنا به وبهويتنا الأفريقية، فإننا نرى في عمقنا العربي وهويتنا العربية بُعدًا مُهمًّا يتطلب مزيدًا من العمل المشترك في ظل التحديات التي تواجه عالمنا العربي في وجوده وكيانه وتماسكه، متطلعين إلى دور أكبر وحركة دءوب لجامعة الدول العربية وجميع مؤسساتنا بما يحقق لمَّ الشمل العربي، إذ نرى أن هذا الأمر صار مُلحًّا، وأن المصلحة العربية المشتركة تقتضي أقصى درجات التنسيق والمشاركة في

كل المجالات بما يحفظ للأمة العربيـة هويتها، ويحقق لهـا مجتمعة أمنها واستقرارها، ويسهم في القضاء على الإرهاب في المنطقة، ويخلصها منه، ويسهم في تخليص العالم كله من شر التطرف والإرهاب، آملين أن يُشكل عملنا المشترك قوة ضاغطة في جميع المحافل الدولية بما يسمع صوتنا للعالم، ويبرز أننا ضحايا ولسنا جلَّادين، وأننا في مقدمة المواجهين للإرهاب؛ لأننا أكثر من يكتوي بناره، وأننا دعاة سلام لا دعاة حرب، غير أنه سلام لا يمكن أن يكون ولن يكون أبدًا استسلامًا، وأن هذه الأمة لن تستسلم ولن تموت، وأن روح المقاومة والممانعة الحضارية فيها لاتزال وستظل حية قويـة، وأنها لا يمكن أن تكون صيدًا سهـلًا لأعدائها، وأنها على قـدر المسئولـية والتحديات، مع إدراكنا أن الأمر يتطلب تحركًا سريعًا على كل المستويات قبل فوات الأوان؛ لأن الخطر داهم، والخطب شديد، والعدو شرس لا يهدأ ولا ينام، ويجب أن تكون يقظتنا أشد وهمتنا أعلى؛ لأن الأمر يتعلق بأصل وجودنا، فإما أن نكون أو لا نكون، مع التأكيد على أننا معًا سنكون قادرين على تجاوز التحديات، على المستوى الوطني، والمستوى العربي، والمستوى الإسلامي،

والمستوى الأفريقـي، والمستوى الدولي، معًا مع الدول الصديقة والمحبة للسلام، وفي كل ميدان بحسبه وما يناسبه، وليس أي من هذه العلاقات على حساب علاقة أخرى تتساوق معها أو تتوازى، على أننا لو أحسنَّا إدارة الأمر فستكون كل علاقة منها دعمًا للعلاقـات الأخرى، وبما يحقق مصالح الجميع، إذن ينبغي على كل طرف أن يحصّل الخير لنفسه ولغيره وللإنسانية، لنحيا معًا حياة هادئة هانئة، لا أن تتحول الساحة الإقليمية أو الدولية إلى صراعات مختلفة لا تبقي ولا تذر، ولا تعود بالخير على أحد، فالعاقل من يعمل للسلام له ولغيره، والأحمق من يسعى للهـلاك والدمار والقلاقل والفتن؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ مِنْ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنْ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ، مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ الله مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ الله مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ»[1]، وإنا لنرجو أن نكون من مفاتيح الخير بإذن الله تعالى.

❊ ❊ ❊

(١) سُـنن ابن ماجه، كتاب أبواب السـنة، بَابُ مَنْ كَانَ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ، حديث رقم ٢٣٧، ط دار الرسالة العالمية.

المبحث الثالث

اللغـة والهويـة

اللغـة والهويـة

اللغـة هـي الوعـاء الحامـل للمعـاني والثقافـات، ولا شـك أنهـا أحـد أهـم عوامـل تشـكيل الهويـة، والتأثـير في بنـاء الشـخصية، فمـن يعـرف لسـانين، ويتكلـم لغتـين يجمـع ثقافتـين، ومـن يتحـدث ثـلاث لغـات يجمـع ثـلاث ثقافـات، ويقـرأ نتـاج عقـول كثـيرة، غـير أن لغـة الإنسـان الأم تظـل أحـد أهـم العوامـل في تشـكيل ثقافتـه، فالذي لا يـدرك أسرار لغتـه لا يمكـن أن يـدرك كنـه ثقافـة قومه ولا أن يسـبر أغوارهـا، مـع خصوصية بالغـة للغـة العربية، فهي لغـة القـرآن الكريم والسـنة النبويـة المشرفة، وفهـم الكتاب والسـنة فرض واجـب، ولا يتم إلا بتعلم اللغـة العربية، وما لا يتـم الواجب إلا بـه فهو واجب، يقـول الحق ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[1]، ويقـول ﷻ:

(١) [سورة النحل، الآية ١٠٣].

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾[1]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾[3]، ويقول نبينا ﷺ: «أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ، بِيَدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ»[4]، وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «تعلموا العربية فإنها من دينكم»[5]، وعن يَحْيَى ابْن أَبِي كثير، أن كاتبًا لأبي موسى كتب إِلَى عُمَر بْن الخطاب من أبي موسى كتابًا فيه لحن، فكتب إليه عُمَر: إذا أتاك كتابي هَذَا فاضرب كاتبك سوطًا واعزله عن عملك[6]، ومرَّ رضي الله عنه على قوم يخطئون الرمي، فلامهم، فقالوا: «إنا قوم متعلمين» بنصب كلمة متعلمين في

(١) [سورة الشعراء، الآيات ١٩٢ - ١٩٥].
(٢) [سورة الشعراء، الآيات ١٩٨ - ١٩٩].
(٣) [سورة الزخرف، الآية ٤٤].
(٤) شرح السنة للبغوي ج ٤/ ص ٢٠٢، وذكره السيوطي في الجامع الصغير ج ١/ ص ٤١٣ حديث رقم ٢٦٩٦، بلفظ: «أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد بن بكر»، وقال : حديث صحيح.
(٥) شعب الإيمان للبيهقي، ج ٣/ ص ٢١٠ ، حديث رقم ١٥٥٦، ط: دار الكتب العلمية بيروت.
(٦) كتاب فتوح البلدان لأبي الحسن أحمد بن يحيى البلاذري، ص ٢٣١ حديث رقم ٥٢٧. ط: دار الكتب العلمية.

موضع يستلزم رفعها، فقال رضي الله عنه: لخطؤكم في لسانكم أشد عليّ من خطئكم في رميكم [1].

وقد علل يوهان فك لخلود العربية بقوله: إن لغة القرآن قد صارت في شعور كل مسلم - أيًّا كانت لغته الأصلية -جزءًا لا ينفصل عن حقيقة الإسلام[2].

ويقول بروكلمان: فبفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعًا مؤمنون بأن العربية وحدها هي اللسان الذي أُحِل لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت العربية من زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى[3].

وبلغ حب المسلمين للعربية - لغة دينهم - مبلغًا يُعبر عنه البيروني الخوارزمي بقوله: ديننا واللغة العربية توأمان، والله لأن أُهْجَى بالعربية أحب إليَّ من أن أمدح بالفارسية، ولذا

(١) شعب الإيمان : باب في طلب العلم، ج ٣/ ص ٢١٠، حديث رقم ١٥٥٧، والجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي، ج ٢/ ص ٨١، ط : دار الوفاء للطباعة والنشر.

(٢) الثقافة العربية الإسلامية وتجربة التفاعل مع الآخر، د. محمد رزمان، ص ٢٦، ط : دار الكتاب الثقافي.

(٣) انظر: فلسفة اللغة العربية لجُرجي زيدان: ص ١٠٤، ط: المحرر الأدبي للنشر والتوزيع.

لم نجد أمة من الأمم حفظت فى صدورها من اللغة مقدار ما حفظه المسلمون من كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ[1].

ولأجل خدمة كتاب الله ﷻ قامت حول القرآن الكريم والسنة النبوية دراسات لغوية وبيانية وبلاغية عديدة، حتى أن من أرَّخوا لعلوم البلاغة أكدوا أنها إنما نشأت في الأصل خدمة لكتاب الله ﷻ، فعندما سئل أبو عبيدة معمر بن المثنى عن قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[2]، وكيف شبه القرآن الكريم ما لا نعلم من طلع شجرة الزقوم بما لا نعلم ولم نرَ من رءوس الشياطين، فقال رحمه الله: إنما خاطب القرآن الكريم العرب على قدر كلامهم، ألم تسمع قول امرئ القيس[3]:

أَيَقتُلُني وَالمَشرَفِيُّ مُضاجِعي وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأَنيابِ أَغوالِ

والعرب لم تر الغول قط، ولكن ذكرها كان يخيفهم ويرعبهم، وكذلك الشأن في ذكر رءوس الشياطين، فتم التعبير بها لتذهب النفس في معنى الجملة كل مذهب، بحيث

(١) نحو وعي لغوي، لمازن المبارك، ص ١٩، ط: مؤسسة الرسالة، ودار الفرقان.
(٢) [سورة الصافات، الآية ٦٥].
(٣) ديوان امرئ القيس، ص ١٤٢، ط: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ.

يتصور كل إنسان رءوس الشيطان بما يخيفه هو، فما يخيف زيدًا ليس بالضرورة هو ما يخيف عمرًا، ولو كان المشبه به معلومًا لربما أخاف بعض الناس دون بعض، أما إبهامه هنا فأمر في غاية البلاغة والبيان، وهو الأمر الذي دعا أبا عبيدة معمر ابن المثنى إلى الشروع في مؤلفه البلاغي: كتاب مجاز القرآن.

ولا ينكر أحد أن التمكن في اللغة باب كبير لحسن فهم كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، بل إن الأصوليين والفقهاء وغيرهم عدوا التمكن في اللغة العربية وأدواتها أحد أهم شروط الاجتهاد، وبلا شك هو أحد أهم شروط المفسر وشارح كتب السنة، كما أن التمكن في اللغة يؤدي إلى مزيد من ثقة المتحدث بنفسه.

وقد أكد الفقهاء على أن الناظر في الشريعة والمتكلم فيها -أصولًا وفروعًا - لا بد أن يكون متمكنًا من اللغة ولا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربيًّا أو كالعربي في كونه عارفًا بلسان العرب، بالغًا فيه مبالغ العرب، أو مبالغ الأئمة المتقدمين كالخليل، وسيبويه، والكسائي، والفراء، ومن أشبههم وداناهم[1].

(١) المذاهب الفقهية وأهميتها في المحافظة على الشريعة الإسلامية، د. هاني تمام ص ٥١، ط: دار الإفتاء المصرية.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ لَا أَدْرِي مَا معنى: "فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بِئْرٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فَطَرْتهَا، أَيْ أَنَا ابْتَدَأْتهَا، وَفِيمَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَأَلَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾[1]، فأخبره رجل من هذيل أن التخوف عندهم هو التنقص، وأشباه ذلك كثير[2].

وعدم المعرفة باللغة العربية ودلالتها وعدم التعمق في فهم النص ومعرفة ما يتعلق به، والاقتصار في العمل على الأخذ بظاهره دون معرفة دقائقه وأسراره يوقع في خطأ جسيم، وقد يصل الحال بصاحبه إلى استباحة الدماء[3].

وأؤكد أن في تراثنا اللغوي والأدبي والنقدي من الفكر والثراء والتنوع ما يحتم علينا إعادة قراءة هذا التراث قراءة جديدة عصرية يمكن أن تشكل أساسًا قويًّا ومتينًا لبناء نظرية عربية في النقد الأدبي، لا تنفصل عن تاريخها ولا عن هويتها

(١) [سورة النحل، الآية ٤٧].
(٢) الاعتصام، لإبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، ج ٢، ص ٨١٠، ط: دار ابن عفان، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
(٣) المذاهب الفقهية وأهميتها في المحافظة على الشريعة الإسلامية، د. هاني تمام، ص ٥٢، ط: دار الإفتاء المصرية.

ولا عن واقعها، بل يمكن أن تكون حال نضجها أحد أهم ملامح هويتنا الواقية وخصوصيتنا الثقافية في زمن العولمة والتيارات النقـديـة والفـكريـة والثقافية الجارفـة [1].

وأؤكد أننا - على سبيل المثال لا الحصر - لو أعدنا قراءة تراثنا النقدي قراءة واعية منصفة لوقفنا على كثير من كنوزه ونفائسه، واتضح لنا - بما لا يدع مجالًا للشك - أن الحياة الأدبية العربية في عصرها الذهبي كانت تموج بتيارات وحركات نقدية لا تقل حيوية وأهمية عن حركة الحياة الأدبية والنقدية في القرنين: العشرين والحادي والعشرين سواء في أوروبا أم في عالمنا العربي، وأن القضايا التي تناولها النقاد العرب القدماء لم تمت بموتهم، فإن الكثير منها ما زال حاضرًا بقوة في ثقافتنا الأدبية والنقدية، وما زال قادرًا على تشكيل منطلق قوي ومتين لنظرية عربية حديثة في النقد الأدبي تنظر بعين الاعتبار إلى الماضي والحاضر معًا، بحيث لا تنكفئ على القديم ولا تنسلخ منه، ولا تنعزل عن الحاضر والآخر الثقافي، ولا تذوب في هذا الآخر ذوبانًا

(١) راجـع كتابنا: «الفكر النقدي بين التراث والمعـاصرة .. نحو نظرية عربية في النقد الأدبي» ص ٦، طبعة وزارة الأوقاف.

يفقدها خصوصيتها وتميزها، بل تنتقي من هـذا وذاك النافع والمفيد، الذي يتناسب مع حضارتنا وقيمنا وثقافتنا العربية والإسلامية، بحيث تصبح هذه النظرية - عند نضجها - هويتنا الواقية في مواجهة تيارات العولمة الجارفة العاتية [1].

❊ ❊ ❊

(١) راجع كتابنا: «الفكر النقدي بين الـتراث والمعاصرة .. نحو نظرية عربية في النقد الأدبي» ص٢٥٦، طبعة وزارة الأوقاف.

المبحث الرابع

الإعلام والهوية

الإعـلام والهويـة

الإعلام صناعة وفن ورسالة، ولا ينكر دوره وأهميته إلا مغيب عن الواقع، فلا شك أن الإعلام الهادف الرشيد أحد أهم مكونات الشخصية السوية، ومما لا شك فيه - أيضًا - أن الإعلام واحد من الأسلحة العصرية في المعارك والقضايا الفكرية والثقافية وتجييش الرأي العام أو تهيئته، وأن فقه المرحلة يحتاج إلى التوازن بين الإعلام الكاشف والإعلام الباني، فلا يمكن لأحد أن ينكر دور الإعلام الرشيد في بناء المجتمعات والدول بصفة عامة وبناء الفكر الرشيد بصفة خاصة، كما لا يمكن لأحد أن يتجاهل خطر استخدام بعض وسائل الإعلام ومواقع التواصل في العمل على هدم الدول أو إفشالها، وبخاصة الإعلام الممول من تلك المنظمات أو الدول الراعية للإرهاب.

الإعلام بصفة عامة جزء من الوطن ومن أهم مكوناته، والإعلاميون هم نخبة من أبنائه ومثقفيه ومستنيريه، فمن

يبصّر بقضايا الوطن الحقيقية، ويواجه مخططات أعدائه إن لم يكونوا هم في الطليعة من ذلك؟

الإعلام الرشيد جزء من الحل، وليس جزءًا من المشكلة ولا يمكن أن يكون، كما أننا نؤمن بأن الإعلام ليس مجرد مصور فوتوغرافي للأحداث، فإن مهمة الإعلام أكبر من ذلك بكثير، فله إلى جانب مهامه في التوعية والبناء والتثقيف مهام رقابية كاشفة لا تقل أثرًا عن دور كثير من الجهات الرقابية التي تعمل على مواجهة الفساد بكل صوره وألوانه ماديًّا كان أو معنويًّا، وليس لأحد أن يعمل على تجريد الإعلام من اختصاصاته أو يعمل على تحويله عن طبيعته أو يصرفه عن مهامه ومساره الصحيح، إلا إذا كان لديه ما يخشى من المواجهة به، غير أن ثمة فرقًا كبيرًا وشاسعًا بين الإعلام الموضوعي البناء والإعلام الإثاري أو الهدَّام.

ونرى أن الإعلام الرشيد لا يمكن أن يقوم على مجرد تصيد الأخطاء أو حتى مجرد رصدها، وينتهي دوره عند هذا الحد معتبرًا الإثارة غاية لا وسيلة.

الإعلام الرشيد هو ذلكم الإعلام الذي يسهم في اقتراح الحلول، ومعالجة المشكلات، ويهيئ الطريق، وينيره أمام

القائمين على شئون البلاد والعباد والمؤسسات، وهو الذي يذكر الإنجاز كما يبرز الإخفاق، والذي يشد على عضد المجتهدين كما ينعي باللائمة على المقصرين.

الإعلام الرشيد هو الذي يعي طبيعة كل مرحلة وما تقتضيه المصلحة الوطنية، واختيار الأوقات المناسبة لمعالجة القضايا.

الإعلام الرشيد يعني الموضوعية دون تهويل أو تهوين أو إفراط أو تفريط.

الإعلام الرشيد هو الذي يسمو صاحبه فوق الانطباعات الشخصية إلى درجة المعالجة الموضوعية، وهو الذي ينصف المختلف معه عندما يحسن، أو يكون الحق في جانبه، كما ينصف المتفق معه أو حتى الموالي له ولا سيما إن كانت الصحيفة حزبية أو خاصة.

الإعلام الرشيد هو الذي يحدد أهدافه، ويعمل على تحقيقها، ويرتب أولوياته ويعمل على إنجازها، ويتخذ من كل ما يؤدي إلى البناء والتعمير ومواجهة الفساد والانحراف ومحاولات إفشال الدولة خطًّا ثابتًا.

ذلكم هو الإعلام الذي نفخر به عندما نطلق عليه مصطلح الإعلام الوطني أو الإعلام الرشيد أو الإعلام النبيل، أو الإعلام الهادف، أو الإعلام البناء، وذلكم هو الذي يبقى، ويضمن لصاحبه أو لمؤسسته خلودًا حقيقيًّا لا زيف فيه، ويسهم في بناء الشخصية القويمة وتشكيل الهوية الوطنية المبهرة.

وحتى إعـلام المعارضة فهنـاك المعارضة المنصفة الشريفة التي تقول لمن أحسن أحسنت ولمن قصر قصرت، لا إعلام التصيد والتنكر وقلب الحقائق الذي يعمل على قلب الحسنات إلى سيئات على نحو ما نرى من إعلام الجماعات الإرهابية، مما يجعلنا في حاجة ملحة إلى إعمال آلة إعلام البناء في مواجهة آلات إعلام الـهدم ومحاولات إفشال الدول.

وعليه فإننا نحذر من الانسياق خلف إعلام الجماعات الإرهابية، وكتائبها الإلكترونية، وأبواقها الإعلامية، وكل من يسير في كنفها على طريق الهدم، والتشويه، والكذب والافتراء، وقلب الحقائق، بل إن واجبنا أن نتعاون على كشف هؤلاء المجرمين وفضحهم، وبيان عمالتهم وخيانتهم، وأن نحذر بوضوح وشفافية من هؤلاء الخونة

العملاء المأجورين، ومن أبواقهم ومواقعهم المحرضة على الفتن، وهدم الأوطان، وخدمة مخططات الأعداء، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

على أن مفهوم الإعلام العصري يتجاوز عالم الصحافة والتلفاز إلى آفاق أوسع وأرحب تشمل كل آليات التواصل الحديثة والعصرية مقروءة ومسموعة ومرئية بشتى الآليات والأدوات والوسائل.

مع تأكيدنا على أهمية الإخلاص والتجرد والبُعد عن الأهواء وتصفية الحسابات، فإن الوقوع في آفات الهوى والميل وعدم الإنصاف طامَّة كبرى يجب الترفع عنها، وذلك أن بعض النفوس المريضة لا تعرف سوى الهدم طريقًا، على حد ما قرره الإمام علي بن عبد العزيز الجرجاني في مقدمة كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه» حيث ذكر أن أهل النقص فريقان، فريق يعمل على جبر نقيصته وستر عورته، وهذا أمر حسن؛ لأنه قد شغل بأمر نفسه ويعمل على إصلاح

(١) [سورة يوسف، الآية ٢١].

حاله وشأنه، أما الفريق الآخر من أهل النقص فقد قعد به عن الكمال عجزه أو اختياره، أي ضعفه أو كسله، فلم يجد شيئًا أجبر لنقصه وأستر لعورته من انتقاص الأماجد وحسد الأفاضل، ظنًّا أن ذلك قد يجرهم إلى مثل نقيصته أو ينزل بهم إلى مستوى درجته[1].

وقد امتهن بعض الناس حتى في العصور المتقدمة المدح والهجاء صنعة يتكسبون بهـا، وإذا كان التكسب بالمديح والثناء أمرًا معروفًـا حتى لدى شعراء الجاهلية فيمن عرفوا بمدرسة الصنعة أو التكسب بالشعر كزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني وغيرهما، فإن هناك من عُرف بالتكسب بالهجاء حتى في عصر صدر الإسلام كالحطيئة الذي كان يبتز الناس بهجائه وتعرضه لهم، حتى أن الخليفة عمر رضي الله عنه هدده تهديدًا شديدًا إن لم يكف عن أعراض الناس، فقال: إذن يموت عيالي يا أمير المؤمنين، فاشترى منه عمر أعراض الناس بأربعين ألف درهم على ألا يتعرض لهجاء أحد، فكف الحطيئة عن هجاء الناس طوال خلافة عمر، ثم عاد إليه بعد وفاته.

(١) انظر: الوسـاطة بين المتنبي وخصومه، لأبي الحسـن الجرجاني، ص٣ من المقدمة، ط: مكتبة العرفان.

وكل هذا لا يمكن أن يصنع حضارة حقيقية، أو يقدم للمجتمع الكفاءات التي تستحق الثناء والتقدير الحقيقي، بل إن هذا النقد قد يسهم في الهدم، أما النقد الحقيقي المتجرد الموضوعي المبني على أسس علمية وعلى الخبرة والدربة والممارسة وكثرة التحصيل وعلى الإنصاف، بأن تقول لمن أحسن: أحسنت، ولمن أساء - بأدب وموضوعية -: أسأت وقصرت، وربما تضع يده على وجه الخلل وعلى طرق الإصلاح، فهذا هو النقد الهادف الذي يبني ولا يهدم، وينصف ويشجع، وفي الوقت نفسه يبين ويحذر.

فإذا كانت القيادة مسئولية وأمانة، فإن ممارسة النقد والتحليل أيضًا مسئولية وأمانة، وكلنا مسئولون أمام الله ﷻ، كل عن الأمانة التي ولاه الله إياها، كما أننا مسئولون عن بناء وطننا، والعمل على نهضته ورقيه من خلال سبل البناء والإصلاح لا الهدم والنقض، ولا النفعية أو حب الظهور، على أن الغالبية العظمى صارت تميز الغث من السمين، وصدق الله العظيم إذ يقول في كتابه الكريم: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

(١) [سورة الرعد، الآية ١٧].

المبحث الخامس

الأسـرة والتعليم وعوامل أخرى

الأسـرة والتعليم وعوامل أخرى

الأسرة هي اللبنة الأولى في تشكيل المجتمع، وأحد أهم المؤثرات في بناء الشخصية وتشكيل الهوية.

وهي الوحدة الأولى التي تتكون فيها العلاقات، ويكتسب المرء فيها كثيرًا من المعارف والمهارات، وفيها يبنى وجدانه، وتتشكل اتجاهاته في الحياة، وفيها يجد أمنه وسكنه[1]، وفي بيان أثر الأسرة في تكوين الشخصية، يقول الشاعر العربي[2]:

ويَنشأُ نـاشئُ الـفتيانِ مـنّا على مـا كـانَ عَـوّدَهُ أبُـوه

ويصور شوقي أثر ما يغرس في ذهن الناشئة من قيم أو أفكار أو معارف في وقت الصغر، تمثيلية رائعة، فيقول[3]:

سـارت مـهـا مسـرورة مـع والـدٍ حـانٍ أبـر

فـرأت هـنـالـك نـخـلـة مـعوجـة بـيـن الـشجـر

---

(١) راجع نظام الأسرة في الإسلام، لمحمد عقلة، ص ٨، طبعة مكتبة الرسالة الحديثة ١٩٩٠ م.

(٢) اللزوميـات، لأبي العلاء المعـري، قصيدة، قد اختَلّ الأنامُ بغيرِ شَـكٍّ، ج ١، ص ٤٢١، تحقيق: د. عمر الطباع، طبعة دار الأرقم.

(٣) الشوقيات، ص ٢١٣، تحقيق: د. عمر الطباع، طبعة دار الأرقم.

فتناولت حبلا وقالت يا أبي هيا انتظر
حتى تقوم عودها فتكون أجمل في النظر
فأجاب والدها لقد كبرت وطال بها العمر
ومن العسير صلاحها فات الأوان ولا مفر
قد ينفع الإصلاح والتهذيب في عهد الصغر
والنشء إن أهملته طفلًا تعثر في الكبر

فلا شك أن بناء الإنسان وصياغة شخصيته يعتمد بدرجة كبيرة على نوع التنشئة والتربية الأسرية، ولا سيما في مراحل عمره الأولى، التي تطبع الشخصية بسمات وعادات وتقاليد تكاد تكون جينية أو متوارثة، ربما لا تمحوها أية عوامل أخرى، ولا سيما المجتمعات المغلقة.

وكما لا يمكن لباحث أو دارس أن يغفل دور الأسرة فلا يمكن له أيضًا أن يغفل دور المدرسة والمعلم القدوة في بناء الشخصية، وتشكيل ملامح هويتها، فالتعليم الجيد يعني مواطنًا جيدًا، ذلك أن التعليم الحقيقي هو الذي يقوم على بناء الإنسان فكريًّا ومعرفيًّا وسلوكيًّا ومهاريًّا، فلم نرَ

أمة نهضت وتقدمت علميًّا أو فكريًّا أو حضاريًّا بغير العلم والتعليم الجيد، يقول الشاعر [١]:

أروني أمة بلغت مناها بغير العلم أو حد اليمان

ويقول الآخر [٢]:

بالعلم والمال يبني الناس ملكهم لم يبن ملك على جهل وإقلال

وفي إشارة إلى أهمية العلم والتعلم جعل نبينا ﷺ فداء من يحسنون الكتابة من أسرى بدر أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة[٣]، ويكفي أن أول ما نزل على سيدنا رسول الله ﷺ من القرآن الكريم هو قول الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٤].

وقد أعلى الإسلام من شأن العلم والعلماء، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا

---

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، د. عبد المتعال الصعيدي: ج ١ ص ٣، طبعة مكتبة الآداب.

(٢) الشوقيات، ص ٢٣٢ ، تحقيق: د. عمر الطباع، طبعة دار الأرقم.

(٣) نظام الحكومة النبوية، المسمى التراتيب الإدارية، للعلَّامة السيد محمد الكتاني، تحقيق: د.عبد الله الخالدي، ص ١٠٨، طبعة دار الأرقم.

(٤) [سورة العلق، الآيات ١-٥].

يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1]، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3]، ويقول ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[4]، ويقول نبينا ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ الله بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[5].

على أن مفهوم العلم النافع يتسع ليشمل كل علم ينفع الناس في أمر دينهم أو أمر دنياهم، وليس خاصًّا ولا مقصورًا على العلوم الشرعية وحدها ولا على العلوم العربية وحدها، وأن قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن

(١) [سورة الزمر، الآية ٩].
(٢) [سورة فاطر، الآية ٢٨].
(٣) [سورة المجادلة، الآية ١١].
(٤) [سورة النحل، الآية ٤٣].
(٥) سُنن أبي داود، كتاب العلم، باب: من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، حديث رقم ٣٦٤١.

﴿كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] ليس مقصورًا على العلوم الشرعية، إذ لم يقل ﷻ اسألوا أهل الفقه وحدهم، أو أهل الحديث وحدهم، أو أهل التفسير وحدهم، إنما يتسع الأمر لسؤال أهل الطب في الطب، وأهل الهندسة في الهندسة، وهكذا في سائر العلوم والمعارف والصناعات التي تنفع الإنسانية، فأهل الذكر هنا هم أهل الاختصاص في كل علم من العلوم، أو صناعة من الصناعات، أو حرفة من الحرف.

ولذا نرى أن قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2]، جاء في معرض الحديث عن الآيات الكونية، حيث يقول ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[3] مما يؤكد ما ذهبنا إليه من اتساع مفهوم

(١) [سورة الأنبياء، الآية ٧].
(٢) [سورة فاطر، الآية ٢٨].
(٣) [سورة فاطر، الآيتان ٢٧، ٢٨].

العلم النافع؛ ليشمل كل ما فيه خير البلاد والعباد من علوم الدين، وعلوم عمارة الكون، وبناء الحضارات.

وقد قالوا: التعلم قبل التعبد؛ ليكون التعبد على هدى، وقال الحسن البصري رحمه الله: العامل على غير علم كالسّالك على غير طريق، والعامل على غير علم يفسد أكثر ممّا يصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا تضرّوا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا تضرّوا بالعلم، فإنّ قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم حتّى خرجوا بأسيافهم على أمّة محمّد صلى الله عليه وسلم، ولو طلبوا العلم لم يدلّهم على ما فعلوا [1].

وينظر علماء التنمية البشرية إلى المعلم على أنه يشكل المصدر الأول للبناء الحضاري الاقتصادي والاجتماعي للأمم، وذلك من خلال إسهاماته الحقيقية في بناء البشر وتكوينهم، والحجم الهائل الذي يُضَاف إلى مخزون المعرفة، الذي عبرت عنه نظرية رأس المال البشري بأنه كلما نجح المعلم في زيادة المستويات التعليمية لأبناء الأمم، ارتفعت معها مستويات المعرفة، ومن ثم ترتفع مستويات الإنتاج

(١) جامع بيـــان العلم وفضله، ابن عبد البر القرطبي، طبعة ابن الجوزي عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ١/ ٥٤٥ المملكة العربية السعودية.

القـومي العام، والذي بـدوره ينعكس على زيادة مستويات دخل أبناء الأمم وتحقيق الرفاهية الاجتماعية[1].

ولا شك في أن قيام التعليم بدوره في مجال تعزيز الهوية الثقافية يتطلب تنفيذ أولويات عدة أساسية: أولها، التركيز على المناهج الدراسية التي ترسي وتعزز قيم الهوية الوطنية وركائزها في عقول وقلوب الأطفال.

بالإضافة إلى ضرورة تطوير المناهج التعليمية بالاعتماد على أساليب أكثر جذبًا للنشء في ما يخص قيم المواطنة والهوية الوطنية، وذلك على النحو الذي يحصن هذا النشء منذ الصغر ضد مخاطر فقدان الهوية، ويغرس في نفوسهم حب الوطن وعاداته وتقاليده، من خلال أدوات وأساليب غير تقليدية تتوافق مع نمط التفكير السائد لدى النشء.

وإلى جانب الأسـرة والتعـليم يأتي دور المؤسسـات الثقافية بكل ما تحمله كلمة الثقافة من معانٍ، ولا سيما في

(١) انظر : التعليم وبناء الشـخصية الوسطية، د. نبيل السمالوطي بحث مطبوع ضمن بحوث كتـاب: بناء الشـخصية الوطنية ط : وزارة الأوقـاف ص ٢٠٦-٢٠٧، نقلًا عن كتاب «القيمة الاقتصادية للتعليم في الوطن العربي .. دراسات وبحوث»، د. محمد متولي غنيمة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة سنة ١٩٩٦م.

مجالات الآداب والفنون المنضبطة بضوابط القيم الأخلاقية والإنسانية الراقية.

وتشمل الثقافة - أيضًا - مجموع ما توصلت إليه أمة أو بلد في الحقول المختلفة من أدب وفكر وصناعة وعلم وفن، ونحوها؛ بهدف استنارة الذهن وتهذيب الذوق وتنمية ملكة التفكير لدى الفرد أو في المجتمع[1].

ويذكر بعض الكتاب أن عناصر الهوية الثقافية تتمركز حول أدوات ووسائل وأشكال التعبير التي تربط بين أعضاء المتحد الاجتماعي وحول تصوراتهم المشتركة للإنسان والكون والطبيعة والعالم والمجتمع، وحول خيالهم الاجتماعي، كما يتجسد في الحكايات والأمثال والأساطير والفُلكلور، وحول منظومة المعايير السلوكية والأخلاق العملية[2].

ويتسع نطاق الثقافة لتشمل في صيغتها الأنثروبولوجية على منظومة العقائد والمعايير والقيم والتصورات المشتركة

---

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، ج ١/ ص ٣١٨، طبعة عالم الكتب ٢٠٠٨م، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

(٢) انظر: الهوية لأليكس ميكشيللي، ترجمة: د. علي وطفة، ٢٧، ٢٨، طبعة دار الوسيم للخدمات الطباعية دمشق، سنة ١٩٩٣م.

والعادات والأخلاق، كما تشتمل على مختلف موضوعات الحياة اليومية والقيم الجمالية وتعبيراتها، وأما في جوانبها السيكولوجية، فالثقافــة كل المكتسب من المبادئ الثقافية: (عقائد، ومعايير، وقيم)، والتصورات الجمعية، والنماذج والرموز المرجعية التي تكتسب على نحو سيكولوجي[1].

ولا شك أن اتساع الأفق الثقافي أو ضيقه يشكل عاملًا رئيسًا في بناء الشخصية وتشكيل الهوية للفرد والمجتمع، فثقافة ضيقة تعني مجتمعًا مغلقًا، وثقافة واسعة تعني سعة أفق الفرد والمجتمع، فقد عانينا لفترات طويلة في عالمنا العربي والإسلامي من ضيق الأفق الثقافي أو محدوديته لدى كثيرين، وربما انسداده أو انغلاقه في بعض الأحايين، وقد صارت أحادية البُعد الثقـافي ظــاهرة تستحق المناقشة؛ حيث يركز الباحث أو الدارس على علم أو فن بعينه يستغرقه فكريًّا أو أكاديميًّا، ينحصر فيه دون سواه، مما يخرج لنا جيلًا ربما نجد فيه عالما غير مثقف، أو غير قادر على العمل الجماعي بروح الفريق أو التواصل المرن مع مجتمعه، لعدم إلمامه بأدوات العصر واتجاهاته الثقافية والمعرفية، وربما ينحرف بالمتحدث

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، ج ١ ص ٣١٨، طبعة عالم الكتب.

أو الكاتب إلى معالجة خاطئة لبعض القضايا، أو ينجرف به إلى الصدام مع المتلقي مشاهدًا كان أو سامعًا أو قارئًا[1].

كما أن تاريخ الأمم وحضارتها وآثارها وموقعها الجغرافي وطبيعتها الحضارية أو البدوية أو الساحلية أو الشاطئية، وما تضم من بحار وأنهار وكثبان وتلال وسهول وجبال ووديان، كل ذلك يطبع شخصية الإنسان بطابع يسهم بلا أدنى شك في تشكيل هويتـه وبناء شخصيته، ومن مجمل السمات الشخصية المشتركة لغالبية أفراد المجتمع تظهر السمات المشتركة الكبرى لمجتمع أو دولة أو أمة من الأمم، فالصورة الذهنية الكبرى لأمة من الأمم هي مجموع الصور الذهنية لأفراد هذه الأمة أو لغالبيتهم أو لأكثرهم تأثيرًا من بين أبنائها.

ويسرني أن أختم حديثي عن أثر الثقافة والحضارة في بناء الشخصية وتشكيل الهوية بجانب مما سطره الأديب الكبير الأستاذ/ نجيب محفوظ في كلمته التي ألقاها نيابة عنه الأستاذ/ محمد سلماوي في حفل تسلمه جائزة نوبل في الآداب، وجاءت تحت عنوان: «أنا ابن حضارتين» وفيها

(١) راجع مقدمة كتابنا: في فضاء الثقافة ص ٦، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

يقول: أنا ابن حضارتين تزوجتا في عصر من عصور التاريخ زواجًا موفقًا، أولهما عمرها سبعة آلاف سنة، وهي الحضارة الفرعونية، وثانيهما عمرها ألف وأربعمائة سنة، وهي الحضارة الإسلامية، ولعلِّي لست في حاجة إلى التعريف بأي من الحضارتين لأحد منكم، وأنتم من أهل الصفوة والعلم، ولكن لا بأس من التذكير ونحن في مقام النجوى والتعارف.

وعن الحضارة الفرعونية لن أتحدث عن إنجازاتها في الفن والأدب، ومعجزاتها الشهيرة الأهرام وأبو الهول والكرنك، فمن لم يسعده الحظ بمشاهدة تلك الآثار فقد قرأ عنها وتأمل صورها.. دعوني أقدمها بما يشبه القصة ما دامت الظروف الخاصة بي قضت بأن أكون قصاصًا، فتفضلوا بسماع هذه الواقعة التاريخية المسجلة.. تقول أوراق البردي: إن أحد الفراعنة قد نمى إليه أن علاقة آثمة نشأت بين بعض نساء الحريم وبعض رجال الحاشية.

وكان المتوقع أن يجهز على الجميع، فلا يشذ في تصرفه عن مناخ زمانه، ولكنه دعا إلى حضرته نخبة من رجال القانون، وطالبهم بالتحقيق فيما نمى إلى علمه، وقال لهم: إنه يريد الحقيقة ليحكم بالعدل .. ذلك السلوك في رأيي أعظم

من بناء إمبراطورية وتشييد الأهرامات، وأدل على تفوق الحضارة من أي أبهة أو ثراء، وقد زالت الإمبراطورية، وأمست خبرًا من أخبار الماضي، وسوف تتلاشى الأهرامات ذات يوم، ولكن الحقيقة والعدل سيبقيان ما دام في البشرية عقل يتطلع أو ضمير ينبض.

وعن الحضارة الإسلامية فلن أحدثكم عن دعوتها إلى إقامة وحدة بشرية في رحاب الخالق تنهض على الحرية والمساواة والتسامح، ولا عن عظمة رسولها، فمن مفكريكم من كرمه كأعظم رجل في تاريخ البشرية، ولا عن فتوحاتها التي غرست آلاف المآذن الداعية للعبادة والتقوى والخير على امتداد أرض مترامية ما بين مشارف الهند والصين وحدود فرنسا.

ولا عن المؤاخاة التي تحققت في حضنها بين الأديان والعناصر فى تسامح لم تعرفه الإنسانية من قبل ولا من بعد، ولكنى سأقدمها في موقف درامي- مؤثر- يلخص سمة من أبرز سماتها، ففي إحدى معاركها الظافرة مع الدولة البيزنطية ردت الأسرى في مقابل عدد من كتب الفلسفة والطب والرياضة من التراث الإغريقي العتيد، وهي شهادة

قيمة للروح الإنسانية في طموحها إلى العلم والمعرفة، رغم أن الطالب يعتنق دينًا سماويًّا، والمطلوب ثمرة حضارة وثنية.

قدر لي يـا سادة أن أولد في حضن هاتين الحضارتين، وأن أرضع لبنيهما وأتغذى على آدابهما وفنونهما، ثم ارتويت من رحيق ثقافتكم الثرية الفاتنة، ومن وحي ذلك كله، بالإضافة إلى شجوني الخاصة، ندت عني كلمات أسعدها الحظ باستحقاق تقدير أكاديميتكم الموقرة فتوجت اجتهادي بجائزة نوبل الكبرى.

* * *

المبحث السادس

الهوية والصورة الذهنية للأفراد والمجتمعات

الهوية والصورة الذهنية للأفراد والمجتمعات

الصورة الذهنية لأي شخص أو مجتمع تنعكس سلبًا أو إيجابًا على قبوله أو رفضه، على التعامل معه أو ضده، وترتبط إلى حد كبير بموروثه الحضاري والفكري والثقافي، ومدى اعتزازه بهويته وارتباطه بها، وحرصه عليها.

ولا يقف أثر الصورة الذهنية عند مجرد النظر العاطفي إلى شخص أو دولة أو أمة، إنما ينعكس ذلك مباشرًا على مصالح الأفراد أو الدول وعلاقاتها، فصورة ذهنية عن دولة جادة متقنة مبدعة سينعكس إيجابًا على فتح الأسواق العالمية أمام منتجاتها والحرص على الإفادة من خبرات أبنائها، أمة تحترم عهودها ومواثيقها ستكون موضع احترام وتقدير دولي، وتستطيع أن تبني شراكات دولية واسعة، ودولة لا عهد لها ولا ذمة ستكون موضع ارتياب دولي إن لم تصبح عرضة لعزلة دولية كبيرة تنعكس سلبًا على مصالحها ومصالح أبنائها.

والصورة الذهنية منها ما هو عارض خاطف، ومنها ما هو مترسخ ومتجذر في الذاكرة، غير أن بناء الصورة الذهنية لشخص أو شعب يحتاج إلى مساحات أوسع من الزمن وجهد ملموس على الأرض.

الصورة الذهنية الخاطفة أو العارضة قد تكون محدودة التأثير، غير أن تراكم هذه الصور يؤدي بلا شك إلى بناء صورة ذهنية راسخة متجذرة تكون ذات أثر بالغ في الحكم على الأفراد أو الشعوب.

الصورة الذهنية الخاطفة تكون وليدة موقف أو لحظة كحسن مقابلة السائح، أو إنهاء إجراءات استقباله بسهولة ويسر في جميع خطوات التعامل معه بدءًا من الحصول على إذن الدخول، إلى إنهاء إجراءات استقباله بالمطارات والموانئ، فالفنادق، فالمتاحف، فسائر التعاملات.

وقد تتكون الصورة الذهنية لدى السائح بنظرته إلى مستوى النظافة والنظام واللمسات الجمالية والطراز المعماري لدى الشعب المضيف.

وقد تتكون الصورة الذهنية عن الدول والشعوب من خلال السلع التي تنتجها تلك الدول والشعوب ومستوى

جودتها ومهارة صانعيها وحرفييها، وأطبائها، ومهندسيها، ومعلميها، وعلمائها، وأدبائها، ومفكريها.

وأرى أن الجانب السلوكي من أهم الجوانب المؤثرة في بناء الصور الذهنية، وقد قالوا: حال رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل، فالناس لا يصدقون الكاذب، وإن خطب فيهم ألف خطبة وخطبة عن الصدق، ولا يأتمنون الخائن أو الغادر وإن أعطاهم ألف عهد وميثاق وحدثهم ألف حديث وحديث عن الأمانة والوفاء؛ لذا يجب أن يكون لنا وجه واحد ظاهره كباطنه، وليس لنا وجهان، أحدهما: ظاهر، والآخر خفي، إذ يمكن للإنسان أن يخدع بعض الناس لبعض الوقت، لكن لا يمكن لأي إنسان مهما كان ذكاؤه ومهما كانت حصافته وحيطته ودهاؤه أن يخدع كل الناس كل الوقت.

ولا شك أن المستوى الثقافي والمعرفي لأي شخص إنما ينعكس على الصورة الذهنية عنه، فكلما كان الإنسان منطقيًّا في خطابه كان أكثر إقناعًا، أما إذا كان ظاهرة صوتية يعتمد على الجعجعة التي لا طحن لها دون سند من العقل والفكر والحقيقة فإنه لا يمكن أن يقنع أحدًا، ولو تذرع بجيش

من وسائل الإعلام أو الكتائب الإلكترونية الحديثة، لأن الحق أبلج والباطل لجلج، حتى وإن توهم أنه ربح جولة أو جولات بعلو الصوت أو تجاوز حدود اللياقة في الحوار كوسيلة لإسكات الخصم أو المخالف، فإنه يظل مجرد ظاهرة صوتية لا أثر لها، وإن كان من أثر فهو أثر سلبي يصم الآذان عنه لما يلحقها من أذى صوته غير المنضبط.

وإذا أردنا إعادة بناء الصورة الذهنية لرجل الدين أو عالم الدين، فيجب بناؤها على أساس سليم علميًّا ومهاريًّا وفكريًّا وتربويًّا، يجب أن نحرر الخطاب الديني من أصحاب الأهواء والأفهام السقيمة على حد سواء، وأن نتحول بقضية الخطاب الديني من كونه وظيفة إلى رسالة، وأن يتم التركيز على الكيف لا الكم، فإذا ما بدأ الباحث بتعلم العلوم الدينية فإن ذلك يتطلب دراسته لمكون ثقافي عام لا يقل عن أربعين في المائة بما يؤهله لفهم الواقع الذي يعيشه بكل جوانبه، ويحقق بناء العقلية الجامعة دينيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وفكريًّا وقانونيًّا وإنسانيًّا، ولا مانع أيضًا في ضوء نظرية التقابلية أن يتم النظر في قبول الحاصلين على شهادات علمية في التخصصات المختلفة ممن لديهم الاستعداد لدراسة العلوم

الدينية في برامج تأهيل متقدمة في مجال الثقافة الإسلامية على أيدي العلماء المتخصصين، ثم نقوم بعمل مزج وتدريب مشترك لهؤلاء وأولئك، بما يتيح فرصًا واسعةً للاحتكاك المباشر والحوار المباشر بين هؤلاء وأولئك، مما يسهم في التقارب بدل التنافر، وقد قالوا: من جهل شيئًا عاداه.

وعلينا كل في مجاله وميدانه أن نعمل على تصحيح الصورة الذهنية عن ديننا من خلال نشر الفكر الوسطي المستنير، وتفكيك الفكر المتطرف، والتمسك بأخلاق الإسلام ومثله العليا، وأن نعمل كذلك على تصحيح الصورة الذهنية عن أوطاننا من خلال العمل والإتقان والإبداع والابتكار والسلوك القويم معًا.

وإذا أردنا أن نبني صورة ذهنية مشرفة لوطن أو أمة أو نحافظ عليها، فلن يكون ذلك بغير العلم والعمل، والإبداع والإتقان، والعطاء الإنساني المتميز في مختلف المجالات، وفي خدمة الإنسانية، فضلًا عن اعتزاز أبناء هذا الوطن بهويتهم الوطنية واستعدادهم غير المحدود للتضحية في سبيل وطنهم والحفاظ على هويتهم.

المبحث السابع

من عوامل ترسيخ الهوية

المشتركات الإنسانية في الشرائع السماوية

إن جانبًا كبيرًا من العنف الذي شهدناه على الساحة المصرية، ونشاهده على الساحة الدولية إنما يرجع إلى فقدان أو ضعف الحس الإنساني، واختلال منظومة القيم، مما يجعلنا في حاجة ملحة إلى التأكيد على الاهتمام بمنظومة القيم الإنسانية، والتنوع الثقافي والحضاري، والانطلاق من خلال المشترك الإنساني بين البشر جميعًا.

فقد كرم الحق سبحانه وتعالى الإنسان على إطلاق إنسانيته دون تفرقة بين بني البشر، فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1]، فالإنسان بنيان الرب من هدمه هدم بنيانه عز وجل.

كما أجمعت الشرائع السماوية على جملة كبيرة من القيم والمبادئ الإنسانية، من أهمها: حفظ النفس البشرية، قال تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ

(١) [سورة الإسراء، الآية ٧٠].

فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

ولهذا قدَّر نبينا ﷺ للنفس الإنسانية حرمتها، فلما مرت عليه جنازة يهودي وقف لها، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال ﷺ: (أليست نفسًا؟!)[2].

ومن القيم التي أجمعت عليها الشرائع السماوية كلها: العدل، والتسامح، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، والصدق في الأقوال والأفعال، وبر الوالدين، وحرمة مال اليتيم، ومراعاة حق الجوار، والكلمة الطيبة، وذلك لأن مصدر التشريع السماوي واحد، ولهذا قال نبينا ﷺ: (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ وأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى)[3].

فقد تختلف الشرائع في العبادات وطريقة أدائها وفق طبيعة الزمان والمكان، لكن الأخلاق والقيم الإنسانية التي تكون أساسًا للتعايش لم تختلف في أي شريعة من

(١) [سورة المائدة، الآية ٣٢].
(٢) صحيح البخاري حديث رقم (١٣١٢).
(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٣٤٤٣).

الشرائع، يقول نبينا ﷺ: (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولى: إِذا لَمْ تَسْتَحِ فاصْنَعْ ما شِئْتَ)[1].

وأروني أي شريعة من الشرائع أباحت قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، أو أباحت عقوق الوالدين، أو أكل السحت، أو أكل مال اليتيم، أو أكل حق العامل أو الأجير.

وأروني أي شريعة أباحت الكذب، أو الغدر، أو الخيانة، أو خُلف العهد، أو مقابلة الحسنة بالسيئة.

بل على العكس فإن جميع الشرائع السماوية قد اتفقت وأجمعت على هذه القيم الإنسانية السامية، من خرج عليها فإنه لم يخرج على مقتضى الأديان فحسب، وإنما يخرج على مقتضى الإنسانية وينسلخ من آدميته ومن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ

(١) (رواه البخاري).

نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا
وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ
ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ
إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ
بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ
وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ
لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ
وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم
بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1]:

هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب، وهى محرمات على بني آدم جميعًا، وهن أم الكتاب - أي أصله وأساسه - من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار.

وديننا علمنا أن نقول الكلمة الطيبة للناس جميعًا بلا تفرقة، فقال ﷻ: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا﴾[2] بل نحن مطالبون أن

(١) [سورة الأنعام، الآيات ١٥١-١٥٣].
(٢) [سورة البقرة، الآية ٨٣].

نقول التي هي أحسن، يقول ﷻ: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[1]، ويقولون: البر شيء هين؛ وجه طلق، وقول لين، ويقول الحق ﷻ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[2].

وفى تعاليم سيدنا عيسى عليه السلام: «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر» في دعوة عظيمة للتسامح في كل الشرائع السماوية؛ لكي تعيش البشرية في سلام وصفاء، لا نزاع وشقاق أو عنف وإرهاب.

* * *

(١) [سورة الإسراء، الآية ٥٣].

(٢) [سورة فصلت، الآيتان ٣٤، ٣٥].

صناعـــة القـــادة

عند إعداد قيادات المستقبل لا بد من توافر صفات ومقومات، يأتي في مقدمتها القوة، والأمانة، والوطنية، والثقافة، والقدرة على التحمل وعلى اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة، وفعل ما يجب أن يفعل في الوقت الذي يجب أن يفعل فيه دون توانٍ أو تأخر أو طيش أو تهور، حيث يقول الشاعر العماني أبو مسلم الرواحي:

لا تعجـــل الشيء أمـــام وقتـــه ولا تفتـــه حيث آن بالـــونـــى

وقد لفت القرآن الكريم أنظارنا إلى أهم مقومين من مقومات إعداد القادة واختيارهم، وهما: القوة، والأمانة، أو الحفظ والعلم، حيث يقول الحق ﷻ على لسان ابنة شعيب عليه السلام في شأن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[1].

(١) [سورة القصص، الآية ٢٦].

ويقول ﷻ على لسان سيدنا يوسف عليه السلام في مخاطبة عزيز مصر: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[1]، فالأمانة وحدها لا تكفي والكفاءة بلا أمانة لا تجدي.

ومن خلال هاتين الصفتين لا بد من توافر صفات ومقومات تفصيلية وفق طبيعة المهمة التي توكل إلى قائد أو مسئول، ودرجة المسئولية وحساسية المهام المنوطة بها، ومن أهمها: التفاني والإخلاص في العمل، والقدرة على تحمل الضغوط، والتعامل مع الأزمات وحسن معالجتها، والرؤية السياسية، والإلمام بمتطلبات الأمن القومي، والقدرة على العمل بروح الجماعة والفريق، والتنسيق مع سائر الجهات والمؤسسات المتناظرة، والتميز في مستوى الوعي والثقافة العامة، فثمة ما يعرف في علم الإدارة بعموم الفهم وخصوصية التكاليف، ذلك بأن يكون الموظف أو المسئول أو القائد على مستوى عالٍ من الفهم العام لكل جوانب عمله والإلمام بأطرافه ومشكلاته وتحدياته وتداخلاته وتشابكاته مع الجهات الأخرى، أو الزملاء الآخرين، وعلى أعلى قدر

(١) [سورة يوسف، الآية ٥٥].

ممكن من الإدراك الذي قد يصل إلى درجة التفرد، وعلى أقل تقدير مستوى التميز في المهمة الموكلة إليه، كما يجب أن يكون القائد في أي مستوى قيادي على إلمام ووعي كبير بقضايا الأمن القومي، وتحديات الواقع، وما تتطلبه ظروف المرحلة التي يمر بها العمل، أو يمر بها الوطن.

وعلى كل مسئول أن يستحضر دائمًا حديث سيدنا رسول الله ﷺ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)[1]، وقوله ﷺ: (مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشَرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا أَتَى اللهَ مَغْلُولًا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ فَكَّهُ بِرُّهُ أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ، وَأَوْسَطُهَا نَدَامَةٌ وَآخِرُهَا خِزْيٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2]، وقوله ﷺ: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهفِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٥٢٠٠).
(٢) مسند الإمام أحمد: (٢٢٣٠٠).

تَحَابَّـا فِي الله اجْتَمَعَـا عَلَيْـهِ وَتَفَرَّقَـا عَلَيْـهِ، وَرَجُـلٌ طَلَبَتْـهُ امْـرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِـبٍ وَجَمَالٍ فَقَـالَ إِنِّي أَخَـافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَـدَّقَ أَخْفَـى حَتَّـى لاَ تَعْلَـمَ شِـمَالُهُ مَـا تُنْفِـقُ يَمِينُـهُ، وَرَجُـلٌ ذَكَـرَ الله خَالِيًـا فَفَاضَتْ عَيْنَـاهُ)[1].

❊ ❊ ❊

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٦٦).

بين الكفاءة والولاء

إذا اجتمعت الكفاءة مع الولاء للوطن، والولاء للعمل، والولاء للمهنة، والولاء للمكان الذي يعمل به الإنسان، فذاك أمل منشود، أما إذا كان الولاء لشخص ما، أو جماعة ما، أو حزب ما، هو مناط الاختيار والتقديم على حساب الأمانة أو الكفاية أو الكفاءة فهذا أمر جد خطير، سواء في مقاييس الشرع، أم في مقاييس الوطنية، وهما مرتبطان لا ينفكان، يقول نبينا ﷺ: (مَنِ اسْتَعْمَلَ عَامِلا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِمْ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُ، وَأَعْلَمُ بِكِتَابِ الله وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، فَقَدْ خَانَ الله، وَرَسُولَهُ، وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ) (السُّنن الكبرى للبيهقي)، على أن الولاية أيا كان شأنها كبيرًا أو صغيرًا تتطلب الأمانة والكفاءة معًا، يقول الحق ﷻ على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1]، ويقول ﷻ على لسان ابنة شعيب عليه السلام في

(١) [سورة يوسف، الآية ٥٥].

شأن موسى عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[1]، فلا الأمانة وحدها تجدي، ولا العلم وحده يغني.

ولما سأل أبو ذر الغفاري النبي ﷺ أن يوليه قال له النبي ﷺ: (يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا)[2]، وقد ولَّى النبي ﷺ كلاًّ من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما مع حداثة إسلامهم قيادة الجيش، وفيه كبار الصحابة والسابقون في الإسلام، لما كان يتمتعون به من كفاءة وكفاية وخبرة بفنون الحرب وضروب القتال والنزال.

أما تقديم الولاءات الخاصة فيعيدنا إلى العام الأسود، عام الأهل والعشير، وتقديم الولاء لمكتب الإرشاد على سائر الكفاءات، كما يردنا إلى عقود ساد فيها الفساد الإداري الذي ما زلنا نعاني من آثاره؛ حيث كان التقديم للوصوليين ولبعض المنافقين والمتزلفين، ومن يحسنون طرق الرشوة

(١) [سورة القصص، الآية ٢٦].
(٢) صحيح مسلم حديث رقم (١٨٢٥).

والمحسوبية والواسطة، فنقدم غير الأكفاء على الأكفاء، فكان الظلم والإحباط، وأصبح هَمُّ غير الأكفاء أن يستروا عوراتهم بإبعاد الأَكْفَاء عن طريقهم من جهة، وأن يعملوا على استرداد ما دفعوه من أجل الوصول إلى ما وصلوا إليه أضعافًا مضاعفة من جهة أخرى.

ولا شك أن هؤلاء الذين يتسلقون على أكتاف الأكفاء بطرق وأساليب غير شرعية ولا قانونية، لا يعملون إلا على إرضاء من فوقهم، حتى لو كان ذلك على حساب دينهم وضميرهم أو على حساب مصلحة العمل أو المصلحة الوطنية.

ولا شك أن هؤلاء النفعيين الوصوليين لا يمكن أن ينهضوا لا بوطن ولا بمؤسسة ولا بأمانة؛ لأنهم لم يكونوا لها أهلًا، ولن يحرصوا على تصعيد الأكفاء، بل إن نفوسهم في الغالب ستكون مليئة بالحقد على هؤلاء الأَكْفَاء المتميزين، وسيكونون حريصين كل الحرص على تصعيد الأضعف الذي يدين لهم بالولاء الكامل، ولا يمكن له أن يراجعهم، أو أن يعترض على شيء من تصرفاتهم، أو ينتقد عملًا من أعمالهم.

ولعل من أكبر الأخطاء التي ارتكبتها جماعات الإسلام السياسي هو انخداعها أو خداعها بالمظاهر الشكلية، وحصر الدين في الشكليات، واعتبار الالتزام ببعض الشعائر التعبدية هو أهم مقومات القيادة بل أهم شروطها وموجباتها، فأكثر الناس ولاء للجماعة هو أكثرهم تأهلًا لتولي المناصب، فقد تجد من كان بالأمس لا يكاد يحسن شيئًا في دنيا الناس يتولى أمرًا خطيرًا من مقاليد أمورهم، مما لا علاقة له به ولا خبرة له فيه، ولعل ما حدث في وزارة الأوقاف المصرية فور تولي عناصر الجماعة الإرهابية لمقاليد السلطة خير شاهد على ذلك، فقد أتوا بأناس من جهات لا علاقة لها بعمل الأوقاف ولا بإدارتها ولا بفنياتها ليعتلوا أعلى المناصب التنفيذية فيها لمجرد الولاء للجماعة، ولم يكن الأمر مقصورًا على الأوقاف وحدها، بل عمت الأخونة كثيرًا من أجهزة الدولة، في سعار مقيت، وشهوة جامحة للسلطة، وإقصاء ربما لم يشهد عصرنا الحديث مثله لكل الكفاءات الوطنية المخلصة من خارج أبناء الجماعة، مما عجل بسقوطهم سقوطًا ذريعًا ربما لم يشهد تاريخنا الحديث مثله، وكشف حقيقتهم للعالم كله، مما يجعلنا نؤكد أنها نهاية هذه الجماعة التي تأكد للجميع أنها تاجرت بالدين وزايدت به مزايدة رخيصة، وظلت تخدع الناس زمنًا

طويلًا، حتى كشف الله ﷻ أمرهم، وعرف القاصي والداني خبث طويتهم، ولم يعـد لهم من مـوال سوى بقايا النفعيين والمكابرين منهم.

على أننا ينبغي أن نفيد من كل ذلك بالبُعد عن الولاءات الزائفة والكاذبة وغير الشرعية وغير الوطنية، وأن نسند الأمر إلى الأجدر على القيام به؛ لأن هذه المرحلة لا تحتمل غير القوي الأمين، الحفيظ العليم، الوطني المخلص.

* * *

الحق والواجـب

لا شك أن مبدأ الحق والواجب، أو الحق مقابل الواجب، أحد أهم المبادئ العادلة التي تسهم في إصلاح المجتمع، فهناك الحقوق والواجبات المتبادلة بين الآباء والأبناء، وبين الأزواج، وبين الجيران، وبين الأصدقاء، وبين الشركاء، وبين المواطن والدولة، وبين العمال وأرباب العمل، وبين المعلم والمتعلم.

وقد أشارت بعض النصوص القرآنية والنبوية إلى هذه التبادلية، وإلى ضرورة الوفاء بالحقوق والواجبات معًا، حيث يقول الحق ﷻ في العلاقات بين الزوجين: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[1]، ويقول ﷺ في الحديث القدسي: (ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ

(١) [سورة البقرة، الآية ٢٢٨].

أَجْرَهُ)[1]، وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: (كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلاَّ مُؤَخِّرَة الرَّحْلِ، فَقَالَ: يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: (يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ)، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ ؟ قَالَ: قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟قَالَ: قُلْتُ الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: (أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ)[2]، وعن سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال في خطبة له خطبها بصفين: «أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ جَعَلَ الله سبحانه وتعالى لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلاَيَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ اَلْحَقِّ مِثْلُ اَلَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، وَاَلْحَقُّ أَوْسَعُ اَلْأَشْيَاءِ فِي اَلتَّوَاصُفِ وَأَضْيَقُهَا فِي اَلتَّنَاصُفِ، لاَ يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلاَّ جَرَى عَلَيْهِ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ

---

(١) صحيح البخارى حديث رقم (٢٢٢٧).

(٢) متفق عليه، صحيح البخارى حديث رقم (٢٨٥٦)، صحيح مسلم حديث رقم (٣٠).

إِلاَّ جَرَى لَهُ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلاَ يَجْرِيَ عَلَيْهِ لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً الله ﷻ».

ورأي بعض الناس رجلا مسنًّا يزرع نخلة لا ينتظر أن يجني شيئًا من ثمارها في حياته، فقيل له: وهل تنتظر أن تدرك جني شيء من ثمارها؟ فقال الرجل: زرع من قبلنا فحصدنا، ونحن نزرع ليحصد من بعدنا، «افعل ما شئت كما تدين تدان».

والقاعدة: أن من أخذ الأجر حاسبه الله على العمل، وأن العقد شريعة المتعاقدين، وقد أمرنا رب العزة بالوفاء بالعقود، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[1]، وحذرنا ﷻ من خيانة الأمانات في العمل أو في غيره، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[2]، وحثنا نبينا ﷺ على إتقان العمل، فقال: (إِنَّ الله يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ)[3]، وديننا قائم على

(١) [سورة المائدة، الآية ١].
(٢) [سورة الأنفال، الآية ٢٧].
(٣) (رواه الطبراني).

الإتقـان، والإحسـان، ومراقبـة الله ﷻ فـي السر والعلن قبـل مـراقبة الخلق، لأن الخلـق إن غفلوا عن المـراقبة أو المتابعـة، فهنـاك مـن لا يغفـل ولا تأخـذه سـنة ولا نـوم، حيـث يقول ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾[1]، ويقـول ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[3]، ويقـول عـلى لسـان لقـمان عليه السلام مخاطبًـا ولـده: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾[4].

---

(١) [سورة البقرة، الآية ٢٥٥].

(٢) [سورة المجادلة، الآية ٧].

(٣) [سورة الأنعام، الآية ٥٩].

(٤) [سورة لقمان، الآية ١٦].

فما أحوجنا إلى ترسيخ مبدأ الحق مقابل الواجب في كل مجالات حياتنا وعلاقاتنا، وبخاصة في مجال العمل، إذ لا يمكن للحياة ولا العلاقات أن تستقيم من جانب واحد، فيكون أحد الشقين معتدلًا، والآخر مائلًا، إنما تستقيم الأمور باستواء الجانبين معًا، والوفاء بالحقوق والواجبات معًا، نؤدي الذي علينا حتى يبارك الله ﷻ في الذي لنا.

❊ ❊ ❊

العدالة الإدارية

العدل هو العدل، والظلم هو الظلم، فالعدل نور لصاحبه في الدنيا والآخرة، والظلم ظلمات يوم القيامة، ولذا جعل نبينا ﷺ الإمام العادل في مقدمة السبعة الذين يظلهم الله ﷻ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، فقال ﷺ: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ، الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الله، وَرَجُل تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) (متفق عليه)، ونهى ﷺ عن الظلم بجميع أنواعه حتى في تحصيل الزكاة، فقال ﷺ لسيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: (فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ)[1]، إنّ العدل

(١) صحيح البخارى حديث رقم (٦٦٠).

ميزان الله الّذي وضعه للخلق، ونصبه للحقّ، فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه.

على أن هذا العـدل الذي ننشـده ليس مسـئولية رئيس الـدولة وحـده، ولا السلطة الأعلى في أي مؤسسة وحـدها، فإن المسئولية في تحقيق العدالة تقع على كل من ولاه الله أمر مجموعة من الناس في أي مجال من المجالات (كلُّكم راعٍ، وكلُّكُم مسئولٌ عنْ رَعِيَّتِهِ)، فمدير المدرسة، إلى مدير الإدارةً، إلى مدير المديرية، إلى وكيل الوزارة، إلى رئيس القطاع، كل في مجاله وميدانه مسئول عن تحقيق العدالة بين مرءوسيه وبين المستفيدين من الخدمة التي تقدمها المؤسسة، وكذلك الحال في القسم، والكلية، والجامعة، وكذلك الأمر بالوحدة الصحية، فالمستشفى، فالإدارة الطبية، فالمديرية، فالقطاع الطبي، وكذلك الحال في الزراعة، والأوقاف، والإسكان، والكهرباء، وسائر الوحدات المحلية، والخدمية، والإدارية.

إن تحقيق العدل الإداري بين الموظفين، وتحقيق العدل في تقديم الخدمات، وفي التعيينات، وفي الترقيات، وفي السفر، وفي الإيفاد والبعثات، ووضع ضوابط واضحة وحاسمة وصارمة وشفافة ودقيقة أمر في غاية الأهمية، ويسهم في

تحقق الرضا المجتمعي، وقوة الإيمان بالدولة، ويعمق الولاء والانتماء إليها، في حين أن الإقصاء الإداري بلا سبب حقيقي واضح ومعلوم يؤدي إلى السخط والاحتقان، أما الظلم فهو محض ظلمات؛ حيث يقول الحق ﷻ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[1]، ويقول ﷻ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[2]، ونستطيع أن نضرب أنموذجًا بما حققناه في مسابقة الأوقاف المصرية، في جميع مسابقات الإيفاد والابتعاث ومسابقات الأئمة والعمال من مقاييس واضحة وشفافة ومعلنة معتمدة على ضوابط محددة وواضحة، بحيث نستطيع أن نؤكد ومن خلال التجربة أن إمامًا واحدًا لم يُقْبل بأي درجة من درجات المجاملة، أو المحسوبية، أو دون استحقاق، ومن كانت لديه حالة واحدة فليشر لنا إليها، ويقول: هذا الإمام تم قبوله دون استحقاق، على أننا لا نذكر ذلك مباهاة،

(١) [سورة إبراهيم، الآية ٤٢].

(٢) [سورة الفرقان، الآيات ٢٦- ٢٨].

فهذا واجبنا، وهذا هو الأصل، وهو ما ينبغي أن نفعله، وهو ما لو حدْنا عنه لكنا مقصرين في واجبنا، وفي الأمانة التي تحملناها، وفي القسم الذي أقسمناه، غير أني أذكر ذلك الأنموذج لأمرين: الأول هو أننا قادرون على أن نحقق العدالة الإدارية والاجتماعية والمجتمعية متى توفرت الإرادة لدينا، وأن هذا الأمر ليس مستحيلًا.

الأمر الآخر: هو مدى حالة الرضا العام الذي يحدث عند تحقيق العدالة، حيث سمع بعض زملائنا من أساتذة الجامعة المراقبين على الامتحانات من يقول: حتى لو لم ننجح فنحن مطمئنون أنه لن ينجح إلا من يستحق ومن هو أفضل منا، وأختم بهذه الرسالة التي وصلتني من أحد المتقدمين للمسابقة؛ حيث أرسلها على بريدي الخاص يقول فيها: «لقد صار عند الجميع قناعة أنه لا نجاح إلا لمن يستحق وبجدارة، وباختصار كان المتقدمون للمسابقات قديمًا يبحثون عن واسطة أو رشوة، أما اليوم فيبحثون عن المصحف والكتاب والمذكرة».

❊ ❊ ❊

السياسة النظيفة

على هامش مشاركتنا في مؤتمرات الشباب غالبًا ما نجد فرصة للحديث مع الزملاء والمشاركين من الشباب وغيرهم في الجوانب الثقافية والوطنية والقضايا العامة، وعلى متن الطائرة ذهابًا إلى أسوان لحضور مؤتمر الشباب الذي أقيم بها دار حديث طويل بيني وبين أحد الزملاء حول بعض القضايا العامة، ثم استرسل بنا الحديث حول بعض معاني الآيات القرآنية، فقال بالحرف الواحد: سأعود مرة أخرى إلى قراءة القرآن الكريم هذه القراءة المتأنية الدقيقة المتأملة في المعاني، ذلك أن القرآن الكريم معطاء لا ينفد عطاؤه إلى يوم القيامة، فهو الذي لا تنتهي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، أي كثرة القراءة والتكرار، بل كلما أعدت قراءته ازداد عذوبة وألقى إليك بالمزيد من أسراره.

ثم كان الحديث مع معالي السيد/ طارق عامر رئيس البنك المركزي فقال: لقد وقفت عند قوله تعالى: ﴿وَمَا

﴿خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1] فتأملت وأدركت وأيقنت أن جميع الأعمال الكبرى لا يمكن أن تقام ولا أن تتم إلا بالحق، فاسترعى كلامه ذلك انتباهي بشدة وجعلني أجيل النظر مرات ومرات في النص وفيما أعلم من كواليس السياسة، وما يطرح في المنتديات الكبرى عن ممارسة السياسة النظيفة، التي لا تعرف المؤامرة على أحد، تراعي وبأمانة حق الجار، وحق الصديق، وحق الدول الشقيقة والصديقة، وتتحلى بالحكمة وضبط النفس والترفع عن الصغائر والدنايا، ولا تنجر إلى معارك كلامية، ولا تنزل إلى ما لا يليق بتاريخها وحضارتها، ونظرت وبحق وصدق في ممارستنا السياسية فأيقنت أننا في أزهى عصور ممارسة السياسة النظيفة، وأن السياسة يمكن أن تكون طهارة، وأننا يمكن أن نبدد النظرة التي كانت في بعض الفترات سلبية تجاه السياسة وبعض السياسيين، وأؤكد أن الغايات الشريفة لا يمكن أن تتحقق إلا بالوسائل الشريفة، وأن مبدأ الانتهازية، وأن الغاية تبرر الوسيلة يمكن بسهولة نقضه أو على أقل تقدير تجاوزه.

---

(١) [سورة الحجر، الآية ٨٥].

وإذا كانوا يقولون: الناس على دين ملوكهم، فهذا صحيح إلى حد ما، إذ يسير الناس في الغالب حول سياسة ملوكهم ويدورون في فلكها، فإذا كان القائد متقيًّا لله ﷻ في جميع تصرفاته، مراقبا له، ووقَّافًا عند مرضاته، فإن ذلك وبلا أدنى شك سينعكس على كل مَنْ حوله.

وإنني لأرى أننا قادرون أن نكون الأنموذج الأمثل في ممارسة السياسة النظيفة، علمًا بأن ممارسة هذه السياسة لا بد لها من ضريبة تدفع، فقد حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، والحق ﷻ يقول: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾[1]، ويقول ﷻ: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾[2].

❊ ❊ ❊

(١) [سورة العنكبوت، الآيتان ٢-٣].

(٢) [سورة البقرة، الآية ٢١٤].

دولة القانون لا الصوت العالي

دولـة القانـون هـي الميـزان الدقيـق الـذي تنضبـط بـه مسـيرة الـدول، فالقانـون يعنـي العـدل والتكافـؤ في الحقـوق والواجبـات، وتطبيـق القانـون عـلى الجميع دون أي اسـتثناءات، وهـذا أيضًـا هـو منـاط الـشرع، فعندمـا استشـفع أهل المرأة المخزومية بسـيدنا أسـامة بـن زيد رضي الله عنه قـال لـه النبـي ﷺ: «أَتَشْـفَعُ فِي حَدٍّ مِـنْ حُـدُودِ الله؟!، ثُمَّ قَـامَ فَاخْتَطَـبَ، ثُـمَّ قَـالَ: إِنَّـمَا أَهْلَـكَ الَّذِيـنَ قَبْلَكُـمْ، أَنَّهُمْ كَانُـوا إِذَا سَرَقَ فِيهِـمُ الشَّرِيـفُ تَرَكُـوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِـمُ الضَّعِيـفُ أَقَامُـوا عَلَيْـهِ الحَـدَّ، وَايْمُ الله لَـوْ أَنَّ فَاطِمَـةَ بِنْتَ مُحَمَّـدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْـتُ يَدَهَا»[1]، وقد خلـد التاريخ مقولة سـيدنا أبي بكـر الصديـق رضي الله عنه حين قـال: الضعيـفُ فيكم قـويٌّ عندي حتـى أرجعَ إليـه حقَّـه إن شـاء اللهّ، والقويّ فيكـم ضعيـفٌ عنـدي حتـى آخـذَ الحقَّ منـه إن شـاء الله،

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٤٧٥).

وهـو عـين ما قالـه وسـار عليه سـيدنا عمر بـن الخطاب رضي الله عنه، وهو ما سـجله شـاعر النيل حافـظ إبراهيـم في عمريته الرائعة عـن سـيدنا عمر بـن الخطـاب حيـث يقول:

كَم خِفتَ في اللهِ مَضعوفًا دَعاكَ بِهِ ... وَكَـم أَخَفتَ قَـوِيًّا يَنثَني تيهـا

فَمـا القَوِيُّ قَوِيًّا رَغـمَ عِـزَّتِهِ ... عِندَ الخُصـومَةِ وَالفاروقُ قاضيها

وَما الضَعيفُ ضَعيفًا بَعدَ حُجَّتِهِ ... وَإِن تَخـاصَمَ واليهـا وَراعيهـا

لكـن الجماعـات المنحرفـة والمأجـورة معًـا أيـام حكـم جماعـة المرشـد ومـا تبعهـا مـن أوقـات عصيبـة أعلـوا فيها شريعـة الغـاب، وظنـوا أنهـم بالقـوة والصـوت العـالي ومحـاصرة المحكمـة الدسـتورية ومدينـة الإنتـاج الإعلامي وغيرهـا قـادرون عـلى إرهـاب المجتمـع وابتـزاز بعـض المسـئولين ومتخـذي القـرار، وأنهـم قـادرون عـلى فـرض إرادة الصـوت العـالي لتمريـر مصالحهـم النفعيـة، ولو على جثـة الوطن، أو على حسـاب الدين وسـائر المبـادئ والقيم.

ولعبـت بعـض مواقـع وصفحـات التواصـل ومافيـا الفيـس بـوك دورًا كبـيرًا في محاولاتهـم تلـك عـبر سياسـة الصـوت العـالي فيـس بوكيـا في فـترات كانـت جـد عصيبة عـلى البـلاد والعبـاد.

غير أن بعض هؤلاء لا يدركون أن الدنيا قد تغيرت وأنه في ظل دولة عظيمة قوية قد أصبح الأمر لدولة القانون وسيادة القانون، وهو ما يتطلب الضرب بيد من حديد على يد كل من يحاول القفز على دولة القانون باستغلال صفحات التواصل للابتزاز أو الإفساد أو الإرهاب أو التحريض، أو محاولة فرض سياسة الصوت العالي على مؤسسات الدولة من خلال الاستقواء بجماعات الفيس بوك والكتائب الإلكترونية للجماعات الإرهابية؛ لأن سياسة الصوت العالي تلك عبر مواقع التواصل خطر داهم على دولة القانون دولة المؤسسات ما لم يُضرب على يدي أصحابها بمنتهى القوة والحسم.

❊ ❊ ❊

الموضوع

مقـدمـــة.	**٥**
تـــوطئة.	**٩**
المبحث الأول: **الدين والهوية.**	**١٥**
المبحث الثاني: **الوطن والهوية.**	**٣٣**
المبحث الثالث: **اللغة والهوية.**	**٤٣**
المبحث الرابع: **الإعلام والهوية.**	**٥٣**
المبحث الخامس: **الأسرة والتعليم وعوامل أخرى.**	**٦٣**
المبحث السادس: **الهوية والصورة الذهنية للأفراد والمجتمعات.**	**٧٩**
المبحث السابع: **من عوامل ترسيخ الهوية.**	**٨٧**

منافذ بيع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة
ت: ٢٥٧٧٥٠٠٠ ــ ٢٥٧٧٥٢٢٨
٢٥٧٧٥١٠٩ داخلى ١٩٤

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ش ٢٦ يوليو ــ القاهرة
ت: ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو ــ القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف
٣٦ش شريف ــ القاهرة
ت: ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى ــ التوفيقية ــ القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر ــ الحسين
ــ القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان
١٣ ش المبتديان ــ السيدة زينب
أمام دار الهلال ــ القاهرة

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو ــ حلوان خلف مبنى
الجهاز

مكتبة الجيزة
١ ش مراد ــ ميدان الجيزة ــ الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة
خلف كلية الإعلام ــ بالحرم الجامعى
بالجامعة ــ الجيزة

مكتبة رادوبيس
ش الهرم ــ محطة المساحة ــ الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع محطة
المساحة ــ الهرم
مبنى أكاديمية الفنون ــ الجيزة

مكتبة ساقية عبدالمنعم الصاوى
الزمالك ــ نهاية ش ٢٦ يوليو
من أبوالفدا ــ القاهرة

مكتبة الإسكندرية
٩٤ ش سعد زغلول ــ الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية
التمليك ــ المرحلة الخامسة ــ عمارة ٦
مدخل (أ) - الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس
مبنى الملحق الإدارى ــ بكلية الزراعة
ــ الجامعة الجديدة ــ الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد
بجوار مدخل الجامعة
ناصية ش ١١، ١٤ ــ بورسعيد

مكتبة أسوان
السوق السياحى ــ أسوان
ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط
٦٠ش الجمهورية ــ أسيوط
ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا
١٦ ش بن خصيب ــ المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)
مبنى كلية الآداب ــ جامعة المنيا ــ المنيا

مكتبة طنطا
ميدان الساعة ــ عمارة سينما أمير
ــ طنطا
ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى
ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقًا ــ المحلة

مكتبة دمنهور
ش عبدالسلام الشاذلى ــ دمنهور
مكتب بريد المجمع الحكومى ــ توزيع
دمنهور الجديدة

مكتبة المنصـــورة
٥ ش السكة الجديدة ــ المنصورة
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكـتـبـة مـنـوف
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية
جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية
مكتبة طلعت سلامة للصحافة
والإعلام
ميدان التحرير ــ الزقازيق
ت : ٠٥٥/٢٣٦٢٧١٠
ت: ٠١٠٠٦٥٣٣٧٣٣٢

الهيئة المصرية العامة للكتاب